فلسفة المقاومة اللاعنفية - هنري ديفيد ثورو أنموذج

إعداد

أ.د/ حسن كامل إبراهيم

جامعة الملك سعود – كلية التربية – قسم الدراسات الإسلامية سابقا

جامعة عين شمس – كلية البنات – قسم الدراسات الفلسفية حاليا

تم استلام البحث في ٢/ ٨/ ٢٠١٨ تم الموافقة على النشر في ٣/ ٩/ ٢٠١٨

استهلال :

بدأ الأدب الأمريكي : Amerrican literature بداية متواضعة ، ثم ما لبث أن أخذ مركزه بين الآداب الأولى في العالم . ومن إيجابياته أنه يمجد : المثل العليا، وصفات الاعتماد على النفس ، والاستقلالية ، واحترام الإنسان ، والتأكيد على الديمقراطية ، وحب الطبيعة والخروج على التقاليد الأدبية من أجل كل إبداع جديد .

وتعد الفكاهة عامة والساخرة بخاصة من الخصائص المميزة لهذا الأدب . وقد شهد تطور الأدب الأمريكي عدة مراحل هي : أدب المستعمرات (١٧٦٥ – ١٦٠٨م) ، وعصر الازدهار الأول (١٧٦٥ – ١٨٥٠م) ، ثم ظهرت أشكال أدبية جديدة بعد الثورة الأمريكية : American Revolution . فقد أشعل الاستقلال السياسي رغبة قوية للاستقلال في فن الأدب ، ولأول مرة انفصل أدباء أمريكا عن ماضيهم الأوروبي . ويبدو ذلك بوضوح في كتاباتهم عن السياسية وتحرير العبيد ، وما لبث الأدب الأمريكي أن بلغ مرحلة النضوج عام (١٨٥٠-١٩٠٠م) .

وإلى جانب هذا النوع من الأدب الأمريكي " الأبيض " إذا جاز التعبير – كان يوجد نوع آخر من الأدب الأمريكي هو الأدب الأمريكي " الأسود " الذي يدور حول مكافحة العبودية ، والمناداة بالحرية والمساواة ، والحق الكامل في المواطنة على قدم المساواة مع الأمريكي الأبيض . وهذا النوع الأخير من الأدب كافح بدوره في تحقيق كافة حقوق المواطن الأمريكي الأسود .

ومن المذاهب الفلسفية التي ظهرت بين هؤلاء الأدباء : " التعالى " ، و" البرهمية " ، و" الكنفوشيوسية " وغيرها من المذاهب الفلسفية . وظهرت مجموعة من الأدباء أطلق عليهم " المتعالون " : Transcendental .

والمتعالون مجموعة من " كتاب نيوإنجلاند " : Engalnd New أكدوا على أن بصيرة الإنسان بفطرته وحواسه تسمو على المعرفة التي تأتي عن طريق المنطق أو الاستنتاجات . وكان " رالف والدو ايمرسون " : Ralph Waldo Emerson (١٨٠٣-١٨٨٢م) متحدثا باسم أنصار الفلسفة المتعالية في كتاباته . أما " هنري ديفيد ثورو " : Henry David Thoreau (١٨١٧-١٨٦٢م) صديق إمرسون فقد طبق نظريات الفلسفة المتعالية فعاش عامي (١٨٤٥ – ١٨٤٧م) حياة بسيطة في والدن بوند Walden Pond بولاية ماساشوسيتس Massachusetts وسجل تجربته في كتابه " والدن " ، وهذا الكتاب يغوص في عمق الطبيعة وأسرار النفس البشرية وماهية الحياة .

لقد عاش " ثورو " في كوخ على الشاطئ الشمالى لبحيرة والدن بوند من أعمال الكونكورد : Concord ، وألف هناك : أسبوع على نهري الكونكورد وميريماك : Concord and Merrimack Rivers ، وقصته " والدن " أو " وحي الغابة " : وهذا الكتاب الأخير اشتهر شهرة كبيرة بل يعده البعض من أفضل ما كتب في تاريخ الأدب الأمريكي عامة . تكلم في هذا الكتاب عن فلسفته المتعالية إلى جانب وصفه لما يوجد في البحيرة التي كان يقيم فيها من سهول ، وحشرات، وحيوانات ، وأسماك ، وطقس ، وفصول السنة ، وأشجار ،،،الخ .

أسس المتعالون مجلة دايل : Dial (١٨٤٠-١٨٤٤م) التي نشروا فيها أفكارهم . ومن هذه الأفكار أنهم يجدون الإله في كل شيء : فى الإنسان ، والطبيعة ،،، الخ . لقد كانت الطبيعة كتابهم المقدس كما يزعمون .. وانقسم المتعالون إلى قسمين : الأول : الذين اهتموا بالإصلاحات الاجتماعية . أما الثاني : فيضم أنصار " إمرسون " و" ثورو " الذين اهتموا كثيرا بالإنسان الفرد . وكان بينهما قواسم مشتركة عديدة جعلت " ثورو " يعيش في بيت " إيمرسون " عامين، وكان يوجد أيضا تشابه كبير بين أفكارهما ، ولكنهما بمرور الزمن اختلفا وافترقا .

حركة التسامي التي جسدها كاتبا المقالات " ايمرسون " و " ثورو " كانت بمثابة ردة فعل ضد المذهب العقلاني : Rationalisme الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر في أوربا ، وارتبطت بوثوق مع الحركة الرومانسية : The Romantic movement . وقد ترافقت عن كثب مع كونكورد بولاية مساتشوستس، وهي بلدة تقع بالقرب من بوسطن : Boston – غربي الولايات المتحدة الأمريكية - حيث عاش " إيمرسون " و " ثورو " ومجموعة من الكتاب الآخرين .

مقال " ثورو " الذي حمل عنوان "العصيان المدني" : Civil Disobedience ، المتضمن نظرية حول المقاومة السلبية في مخالفة القوانين غير العادلة ، شكل مصدر إلهام للكاتب الروسي " ليو تولستوي " : Aleksey Nikolayevich Tolstoy (١٨٢٨ – ١٩١٠م) ويبدو ذلك واضحا في كتابه " مدينة الرب بداخلك " . وكان أثر أيضا مقاله على حركة استقلال الهند التي قادها المهاتما " غاندي " : Mohandas Karamchand Gandhi (١٨٦٩-١٩٤٨م) ، وكفاح " مارتن لوثر كنغ " : Martin Luther King, Jr (١١٩٢٩ – ١٩٦٨م) .

فى الحصول على الحقوق المدنية للأميركيين السود في القرن العشرين . وفي القرن العشرين انتقلت أفكار " تولستوي " و " غاندي " إلى الولايات المتحدة وألهمت العديد من الأميركيين الذين لم يعرفوا في معظم الأحيان أن كثيرا من نظرية اللاعنف قد انطلقت أصلاً من بلدهم .

لم يكن اهتمام " ثورو " منصبا على اندماج الفرد في مجتمع قاس يفرض على أعضائه ضريبة باهظة ، وإنما كان اهتمامه منصبا على كيفية صد الفرد لمجتمع طفيلي ، يتودد للمرء بلا مناسبة ، ويتدخل في شئونه بلا موجب .

ولقد رفض البعض الحلول التي طرحها " ثورو " ، ووصفوه بالمتهرب ، والمتقاعس ، وقالوا : " إنه كان يجب أن يشارك بقية مواطنيه حياتهم بدلا من الانسحاب إلى مركز دفاعي ، محصن يجمع بين صفات الصومعة وصفات الكمين . كذلك اعترضوا قائلين : إنه لم يخسر شيئا عندما دخل السجن في كونكورد ؛ لرفضه أن يدفع ضريبة الرأس لحكومة يعتبرها غير عادلة ، حيث إن صديقا له دفع الضريبة نيابة عنه ، وحصل له على إفراج عاجل ، استطاع بعده أن يتوجه مباشرة إلى الحقول ليلتقط ويأكل من الثمار البرية الشبيهة بالتوت . وفي ذلك أصدق الدليل على تواكله وتهربه من المسئوليات . وقالوا فضلا عن ذلك : إنه لم يقم بعمل معجز أو بطولي عندما عاش لمدة عامين في كوخه المطل على بحيرة وولدن ، فقد كان بيت والدته من القرب منه بحيث تكاد تصله رائحة الطعام التي تطهوه (١) .

إن من يتصفح الموقع الإلكتروني لـ " وزارة الخارجية الأمريكية " على " الشبكة العنكبوتية " يجد عرضا تاريخيا للفكر اللاعنفي عبر صفحات التاريخ الأمريكي ، حتى إن المرء ليدهش من هذا التاريخ الطويل للفكر اللاعنفي منذ إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية بل يمكننا القول أن تاريخ الولايات المتحدة وأيديولوجيتها تتمحور حول الفكر اللاعنفي . ولقد أشار الموقع إلى كتاب "

اللاعنف الأميركي : تاريخ وفكرة ". لمؤلفته " آيرا تشيرنوس " أستاذة الدراسات الدينية في جامعة كولورادو في " بولدر " ، الذي يحكي تاريخ اللاعنف الأمريكي . فهذا الفكر اللاعنفي انتقل إلى أمريكا من أوروبا القرن السادس عشر ونضج وتطور في أمريكا ، ومن هنا انتقل إلى آسيا وأفريقيا .

وحقيقة ما حدث في أمريكا أن الشعب : People هم بتغير الوضع الاجتماعي فكان أمامه إما أن يستخدم العنف أو اللاعنف ، ولكن الشعب قرر - رغم قدرته على استخدام العنف - أن يستخدم اللاعنف . وانتقل ذلك إلى أمريكا عبر أوروبا فى القرن السادس عشر عندما نادوا بتجديد المعمودية ، فقد كانوا منفصلين عن المجتمع بكل مشكلاته وتجاذباته وصراعاته العنيفة ولذلك كانوا ينبذون العنف .

لقد بدأ استخدام فكرة اللاعنف في أمريكا عندما انخرط الأمريكيون في مقاومة الاستعمار البريطاني قبل إعلان الاستقلال ، فقد تكونت جماعة " الأصدقاء " التي عرفت باسم " الكويكرز " : Quakers الذين رفضوا : دفع ضرائب الحرب ، والرق ، واضطهاد الهنود الحمر . إن " نقطة التحوّل الكبرى جاءت في العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر ،عندما بدأت مجموعة تنتمي إلى خلفيات دينية متنوعة تطالب بإلغاء الاسترقاق في الولايات المتحدة . كان هؤلاء المطالبون بالإلغاء جميعهم تقريباً من المسيحيين ، ولم يكونوا جميعهم ملتزمين السعي وراء أهدافهم بوسائل لاعنفية .

لكن الملتزمين منهم شكلوا أول مجموعة حول هدف التغيير السياسي الاجتماعي ثم اختاروا اللاعنف كوسيلة لهم . كانوا يؤمنون بالإله الحاكم الأسمى للكون . لذلك ، قالوا إنه : لا يجوز مطلقاً لأي إنسان أن يمارس سلطة على إنسان آخر . وعلى هذا الأساس شجبوا الاسترقاق . لكن لما كان العنف دائما هو الطريق لممارسة السلطة ، فقد انقادوا بصورة منطقية إلى نبذ العنف أيضا. وفي هذا الجو من الفكر اللاعنفي ظهر " ثورو " الذي قعد ومارس الفكر اللاعنفي في مواجهة الحكومة : Government سواء حكومة الدولة : State أو حكومة الولاية ، لقد آثر حريته وفرديته على ما عداها ، وآثر ضميره الفردى على قانون الحكومة . ويبدو ذلك واضحا في العديد من مقالاته ؛ بخاصة مقالته عن العصيان المدني التي كتبها عام ١٨٤٩ م (٢) .

الفصل الأول
إدارة الدولة

المبحث الأول : من يدير الدولة ؟ :

يطرح " ثورو " في مقالته عن " العصيان المدني " عدة قضايا ، ومن القضايا الرئيسية في المقالة : دور الحكومة الكائنة في دولة ما في إدارة شئونها ؟ . ويفتتح " ثورو " مقالته بأن أفضل عمل ضروري أن تقوم به الحكومة أن لا تدير شئون الدولة .

المطلب الأول : خير للحكومة أن لا تحكم .

يفتتح " أرسطو " : Aristotles (٣٢٢ - ٣٨٤ ق. م .) كتابه " الأخلاق " بتوضيح أن الخير فى كل شيء أن يؤدي الوظيفة المنوطة به ، فكل الفنون ، وكل الأبحاث العقلية ، وكل أفعالنا ، وجميع سلوكياتنا تهدف إلى بلوغ شيء من الخير . وهذا الخير الجزئي يصب في الأخير في الخير الأقصى الكلي الذي يرنو إليه الإنسان ، والخير الأقصى يعني سعادة الإنسان (٣) .

ويسير " ثورو " على منوال " أرسطو " فيشير إلى أن خير الحكومات هي الحكومة التي تؤدي وظيفتها ، وحدد وظيفة الحكومة بأنها الحكومة التي لا تعمل . يقول : "ما فتئت أقبل عن حماسة مبدأ: " خير الحكومة ما حكم أقل " ؛ ووددت لو أني رأيته معمولا به على نحو أسرع وأكثر منهجية . فبإنفاذه يؤول أخيرا إلى المقولة التالية التي أومن بها هي الأخرى : " خير الحكومة ما لا يحكم إطلاقا . " وعندما يكون البشر مستعدين له فذلك نوع الحكومة الذي سيحصلون عليه . " (٤)

هذا ما يراه "ثورو" أو ما يزعم أنه دور الحكومة وهو أنها لا تحكم ، وهذه نظرة فردية متطرفة تؤدي إلى تحويل المجتمع إلى غابة . ولكن الواقع غير ذلك فدور الحكومة أن تدير شؤون الدولة والشعب . إن كلمة "حكومة = government" : مشتقة من الفعل "حكم" ، و"حكم بالأمر" أي : قضي به وفصل . ويقال يحكم البلاد ، أي يتولي تسير شؤونها وإدارتها . وبالتالي الحكومة هي من يحكم الدولة ، إن الحكومة هي الهيئة الحاكمة المؤلفة من أفراد يقومون بتدبير شئون الدولة كرئيس الدولة ، ورئيس الوزراء ، والوزراء ، ومرءوسيهم . إذا الحكومة : جهاز سياسي يتكون من عدة وزراء يسيرون شؤون الدولة ومرافقها في شتى المجالات . وتطلق الحكومة الآن على هيئة الوزارة في الدولة . و الحكومات ثلاث : جمهورية ، و ملكية ، و استبدادية . ومن أنواع الحكومات : الانتقالية ، والاتحادية ، والظل ، والنيابية ، والمركزية ، تكتل ، ذات صلاحيات محدودة ، والائتلافية . إن الحكومة كلمة ومصطلح سياسي يستخدم لوصف

حكومة اليوم . وتضم مجموعة من السياسيين الذين يحتلون مناصبهم كأعضاء للحزب الحاكم . فالحكومة :

- مجموعة أشخاص لديهم سلطة لاتخاذ قرارات .
- الآلية التي تحدد القيم في جماعة .
- الإدارة التي توجه وتتحكم في الشئون العامة لوحدة سياسية .
- الأنشطة أو العمليات المتصلة بالحكم أي ممارسة الضبط على الآخرين أو توجيههم للقيام بأنماط سلوكية معينة . وتوجد حكومات في المجتمعات المعقدة كهيئات للضبط الاجتماعي في مقابل أشكال الضبط غير الرسمية والتقليدية في المجتمعات البسيطة أو غير المتمدنة . إن الحكومة نظام إدارة الدولة أو أداة السلطة على الشعب وتصريف أموره وتوجيه جهوده وتنظيمها وضبط سلوك أفراده وجماعاته عن طريق القوانين التي يضعها صاحب السلطة في الجماعة . ويتولي تنفيذها مستعينا بالقوة المادية عند الاقتضاء . وتطلق في المصطلح السياسي على مجموع الهيئات الحاكمة في الدولة ، فتشمل بذلك السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية . كما تستعمل بمعني أقل شمولا وهو السلطة التنفيذية وحدها . والحكومات فيما يتعلق بالتمييز بين وظيفتي الدولة التشريعية والتنفيذية تتخذ أشكالا ثلاثة : نظام اندماج السلطات أو الحكومة الرئاسية ، ونظام فصل السلطات ، ونظام تعاون السلطات (٥) .

وعلي الرغم من الدور الكبير الذي تلعبه الحكومة في إدارة شؤون الدولة أي دولة فـ " ثورو " يرى أن الحكومة الأمريكية حكومة برجماتية ، حكومة تبحث عن منفعتها ، حكومة قد تحيد عن تحقيق إرادة الشعب : The will of the people ، وإذا كان الأمر كذلك إلا أنه ليس بالضرورة أنه ينطبق علي كل الحكومات . يقول عن حكومته الأمريكية : " ليست الحكومة ، في أحسن الأحوال، غير وسيلة يتذرع بها إلى حين تيسيرا للمصلحة ؛ لكن معظم الحكومات عادة ، وكل الحكومات أحيانا ، لا ييسر المصلحة . والاعتراضات المقدمة ضد جيش قائم – وهي عديدة وذات وزن وتستحق أن تعمم – قد تقدم أيضا في المآل ضد حكومة قائمة . فالجيش القائم ما هو إلا ذراع للحكومة القائمة . والحكومة نفسها ، التي هي الكيفية الوحيدة التي اختارها الناس لإعمال إرادتهم ، معرضة بالمقدار نفسه للشطط في الاستعمال وللشذوذ قبل أن يستطيع الناس العمل من خلالها . " (٦)

ويستشهد " ثورو " على جنوح الحكومة الأمريكية المنتخبة من قبل الشعب ، الذي يريد من هذه الحكومة أن تعبر عن آماله وطموحاته ، لكنها ورطت الشعب الأمريكي بالحرب فى عام ١٨٤٦ م ، مع دولة المكسيك المجاورة لأمريكا . فهذه الحرب دخلتها الحكومة الأمريكية بتحريض من أفراد يستخدمون الحكومة لتحقيق أطماعهم . ولو أن الحكومة استفتت الشعب على ولوج هذه الحرب ما وافق الشعب عليها .

والحرب " المكسيكية الأمريكية (١٨٤٦ - ١٨٤٨م) . حرب اندلعت بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك نتيجة خلافات تراكمت لمدة عقدين من الزمان . " ففي عام ١٨٣٥م تمردت منطقة تكساس على الحكومة المكسيكية وأعلنت جمهورية تكساس في عام ١٨٣٦م . وبعد أن صارت تكساس إحدى ولايات الولايات المتحدة الأمريكية ، طالبت بأن تكون حدودها الجنوبية الغربية عند نهر ريو جراندي ، ولكن المكسيك رفضت ذلك الطلب ، ورفضت كذلك دفع التعويضات للمواطنين الأمريكيين U.S. citizens أو التنازل عن أي أراض أخرى عوضاً عن الدفع . ادعت الحكومةَ الأمريكيةَ بأن الحدود الجنوبيةَ لتكساس كانت ريو جراندي التي أبقتها المكسيك لكي تكون نهر نيوسز . وأعلن الكونغرس الأمريكي الحرب في ١٣ مايو عام ١٨٤٦م ، وردت المكسيك فأعلنت الحرب في ٢٣ مايو . أغلب القتال الرسمي انتهى عملياً في أكتوبر ١٨٤٧م مباشرة بعد أن اقتحم الجنرالِ وينفيلد سكوت وقواته المكسيك . قامت قوات الولايات المتحدة بغزو المكسيك واحتلت مدينة المكسيك (مكسيكو سيتي) العاصمة . وبموجب معاهدة جوادالوبي هيدالجو ، اشترت الولايات المتحدة من المكسيك أراضي : كاليفورنيا ونيفادا ويوتا ومعظم أراضي أريزونا ونيومكسيكو وبعض أراضي كولورادو وويومينج . ولكن كثيرا من المؤرخين يعتقدون أن الحرب كانت هجوما غير مبرر على دولة ضعيفة . " (٧)

نستفيد من ذلك أن الحكومة الأمريكية قامت بعملية سلب ونهب لأرض المكسيك وتوسعت على حساب هذه الدولة المجاورة لها رغم أنها دفعت المال مقابل هذه الأراضي ، فحكومة المكسيك وافقت على هذه الصفقة المشبوهة تحت تهديد السلاح . وما تزال الحكومة الأمريكية تمارس القرصنة والسلب والنهب في صور جديدة – على سبيل المثال لا الحصر – ما جري من استعمار للعراق وما صاحبه من عمليات سلب ونهب بعد احتلال الجيش الأمريكي له في عام ٢٠٠٣ م.

وهذا الاعتراض على حرب أمريكا ضد المكسيك من قبل " ثورو " كرره من بعده كثير من الفلاسفة والمفكرين والأدباء والشعراء . فالفيلسوف الفرنسي " جان

بول سارتر " : Jean-Paul Sartre (١٩٠٥ – ١٩٨٠م) أبدي رفضه ومقته لاستعمار وطنه فرنسا لدولة مجاورة لها هي الجزائر . فكتب سارتر مؤلفه " عارنا في الجزائر " ليعبر فيه عن خطر هذا الاستعمار ، ليس على الجزائر فحسب بل وعلى فرنسا نفسها . يقول : " هذا ما أود أن تتعرفوا عليه فيما يتعلق بالجزائر ، التي هي مع الأسف العميق أبلغ مثال وأبرزه للنظام الاستعماري – يقصد الفرنسي - . أريد أن أوقفكم على قسوة هذا النظام الذي لابد أن ينتهي إلى هذه النهاية المفجعة . وكيف أن أخلص النيات إذا ولدت وترعرعت في داخل هذه الدوائر الجهنمية استحالت إلى فساد مجسم .. فليس هناك مستعمرون صالحون وآخرون طالحون ؟ بل هناك مستعمرون فحسب .. ونحن إذا ما عرفنا ذلك حق المعرفة أدركنا من فورنا لماذا كان الجزائريون على حق في هجومهم على بناء هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وكيف أن تحريرهم بل تحرير فرنسا ذاتها لن يتحقق إلا إذا قضي على الاستعمار قضاء مبرما . " (٨)

ويصف " ثورو " هذا النوع من الحكومة البرجماتية ، التي تبحث عن مصلحة ثلة من الأفراد كما يأتي :

- تسعي إلى تصوير نفسها لمن يأتي بعدها أنها كاملة ، ولكنها رغم ذلك الزيف تفقد كل لحظة رصيدا من كرامتها .
- ليس لها حيوية ولا قوة فرد من أفراد الشعب ، بل في إمكان رجل من الشعب أن يطوعها لمصلحته .
- على الرغم من ضرورتها إلا أنها في نظر الشعب نموذج على السلاح الخشبي أي أنها حكومة ضعيفة لا تستطيع تلبية مطالب الجماهير أمام أطماع القلة التي تدعمها .
- على الشعب أن يبحث عن وسيلة ناجعة يوصل بها صوته لهذه الحكومة حتى تنفذ أوامر هذا الشعب .
- تعرقل أي مبادرة لإصلاح الدولة ما لم تكون هذه المبادرة ترمي إلى تحقيق أهداف الأفراد الذين يدعمون هذه الحكومة .
- لا تهتم بالحفاظ على حرية الدولة ، ولا تخطط للمساهمة في حل مشاكل الغرب ، ولا تهدف إلى تربية الجماهير .
- لم تقدم إنجازا حقيقيا للشعب الأمريكي بل الشعب هو من حقق كل ما نراه من انجازات للدولة الأمريكية ، وكان من الممكن تحقيق مزيد من الانجازات لولا العراقيل التي تضعها أمام طموحات هذا الشعب .

- يشبه هذه الحكومة بجماعة من الأشقياء الذين يضعون العراقيل أمام قضبان السكك الحديدية ، وهذا يدل على أن هذه الحكومة تقف منحازة لمجموعة من الأفراد ضد مصلحة الجماهير
- هذه الحكومة يجب أن ترحل وتأتي حكومة أفضل (٩) .

المطلب الثاني : طبيعة حكم الأغلبية :

ينادي " ثورو " بحكومة أغلبية : majority government فى مقابل حكومة الأقلية Minority government التي تحقق أطماع جماعة من الأفراد ، و يري أن حكومة الأغلبية أو الأكثرية أفضل من حكومة الأقلية البرجماتية التي تبحث عن مصالحها على حساب آمال الجماهير . يقول : " إن السبب العملي ، بعد كل اعتبار ، إذا ما آل السلطان إلى أيدي الجماهير ، في السماح للأكثرية بالحكم ، وبالاستمرار فيه لفترة طويلة ، ليس على الأغلب لأنها على صواب ، ولا لأن هذا يبدو الأنصف في نظر الأقلية ، بل لأنها الأقوى . لكن حكومة تحكم فيها الأكثرية في كل الحالات لا يمكن أن تتأسس على العدل ، حتى في حدود فهم البشر له . " (١٠)

إن " ثورو " يقبل بحكم الأغلبية رغم أن الأغلبية لن تحكم بالعدل : Justice، فهل ذلك يعني أن حكم الأغلبية من وجهة نظره لا يعني الديمقراطية : Democracy التي تنشدها كل فئات المجتمع ؟! . وهل يعني أيضا أن " ثورو "مضطر لقبول حكم الأغلبية رغم أنها لن تعطي الأقليات حقوقها ؟! . وهل ذلك يعني أن حكم الشعب - أي الديمقراطية - مسألة غامضة ؟ يشير " غرين " : Green إلى أن حكم الشعب - أي حكم الأغلبية - مقابل حكم الأقلية هو الديمقراطية بعينها ، وعلى الرغم من ذلك فإن " غرين " يري أن هذا القول يعتريه الغموض كما يعتري مصطلح الديمقراطية الغموض أيضا . فإن " المحافظين في الولايات المتحدة يعارضون برامج العمل الإيجابية باسم الديمقراطية – أي حكم الأغلبية . أما الليبراليون فيؤيدون البرامج نفسها باسم الديمقراطية – أي الحقوق المتساوية للأقليات " (١١)

لكن الديمقراطية الحقيقية في الواقع تضع في اعتباراتها الأكثرية والأقلية فلا يمكن " " طبخ " الديمقراطية دون الاعتماد على ميزان الأقلية والأكثرية ، صحيح أن الديمقراطية ليست نظام ١٠٠% ، ولا نظام ٩٩،٩٩% بالمائة ، ولكنها نظام ٥٠+١ في أبسط تجلياتها عن حكم الأكثرية ، فـ " نصاب الثلثين " هو الميزان الحقيقي للأكثرية ؛ ولذلك تصدر أغلب القوانين والتعديلات الدستورية

والاستفتاءات بهذه النسبة لكي تعبر عن رأي الأكثرية في المجتمع . " (١٢) وحكم الأغلبية مقبول من كل الجماهير لأنها تضع في حسبانها احترام حقوق الأقلية ، وهذه هي الديمقراطية الحقيقية . أما حكم الأقلية - أيا كانت صورها - وإن توشحت برداء الديمقراطية فهو نظام حكم مرفوض لأنه لا يحترم حقوق الأغلبية . ولذلك يمكننا القول أن حكم الأغلبية نظام حكم حقوقي مقابل حكم الأقلية فهو نظام حكم غير حقوقي . بعبارة أخري حكم الأغلبية يقوم على إعطاء كل ذي حق حقه مقابل حكم الأقلية الذي يقوم على إعطاء كل الحقوق للأقلية . ذلك يعني أن حكم الأغلبية حكم القوانين مقابل حكم الدكتاتورية أي الأقلية هو حكم أشخاص (١٣) .

المطلب الثالث : من الذي يحكم : القانون أم الضمير ؟ (١٤) .

قبل أن نتعرف على رأي " ثورو " في هذه القضية : من يحكم القانون Law أو الضمير : Conscience ؟ ، من الضروري أن نتعرف أولا على المقصود بمصطلحي القانون والضمير .

بالنسبة للقانون : هو : النظام ، و الشريعة ، والأصل ، ومقياس كل شيء . وهو أمر كلي ينطبق على جميع جزئياته التي نتعرف أحكامنا منه . إنه مجموعة الشرائع التي تنظم أحوال المجتمع السياسية والتجارية والجزائية وغيرها . والقانون ظاهرة اجتماعية ، إنه وسيلة هامة من وسائل الضبط الاجتماعي . ويمثل القانون قمة التنظيم الاجتماعي للسلوك الإنساني حيث يحدد صراحة ما يجب على الفرد عمله وما يجب عليه الامتناع عنه . يضاف إلى ذلك أن القانون يحدد العقوبة التي تنزل بمن يخالف ما جاء به . القانون إذا هو الضابط الأكبر للحياة الاجتماعية وضامن " تعايش الحريات " . ومهمته تأمين النظام والسلام ، وتحقيق مزيد من العدالة ، وهي فضيلة قوامها إعطاء كل فرد ما يستحقه . ويعكس القانون قواعد الأخلاق السائدة في المجتمع . وهو ، إذ يتداخل ويتفاعل مع الأعراف والعادات والتقاليد والمذاهب الشائعة ، فإنه ، في بعض المجتمعات ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين ...

إن القانون ، باعتباره مجموعة القواعد التي تضبط علاقات أعضاء المجتمع الواحد فهو في تطور مستمر . إنه في الواقع ، يعكس علاقات القوي الكائنة في المجتمع في مرحلة معينة . وتدخل في عداد القوي الصانعة للقانون المصالح المادية ، والمبادئ الدينية والأخلاقيات ، والأيديولوجيات ، والمأثورات والعادات، والتأثيرات الخارجية ، بل العواطف في بعض الأحيان ... ولما كان القانون تقنية من تقنيات تنظيم المجتمع ، فهو ليس حصريا وليس كلى القدرة . فقد كان السفسطائيون : Sophistos (إبان نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس

ق.م) ، انطلاقا من الخلافات التي لاحظوها بين مختلف التشريعات ، قد خلصوا إلى نفي وجود مبدأ أعلى يوجه المشرع . فالتشريع - ولا شيء سواه - هو ما يعبر عن القانون ، والقوة هي التي تصنع القانون . أما " سقراط " : Socrates (٣٩٩ – ٤٦٩ ق.م.) و " أفلاطون " : Plato (٣٤٧ – ٤٢٨ ق.م.) و" أرسطو " ، فقد اعتبروا - على عكس من ذلك - أن القانون يجسد الأخلاق ... علما بأن مفهوم القانون ، في مطلق الأحوال ، معرض للتبدل وللتغيير (١٥) .

وأما الضمير فهو شعور إنساني داخلي يجعل الإنسان يراقب أفعاله ويحاول أن يوجهها إلى الخير ويبعدها عن الشر . إنه استعداد نفسي به يدرك الإنسان الخير والشر ، ويمكنه التمييز بينهما ، وعليه يتكيء الإنسان في قبول شيء أو رفضه . إن الضمير خاصية يصدر بها الإنسان أحكاما مباشرة على القيم الأخلاقية لأعمال معينة ، وهو مصحوب بالقدرة على إصدار أحكام أخلاقية مباشرة على قيمة بعض الأفعال الفردية . ويطلق أيضا على الملكة التي تحدد موقف المرء إزاء سلوكه ، أو تتنبأ بما يترتب على هذا السلوك من نتائج أدبية واجتماعية ، فإن تضمن الضمير حكما على أفعال المستقبل كان صوتا داخليا آمرا أو ناهيا ، وإن تضمن الضمير حكما على الأفعال الماضية كان مصحوبا باللذة أو الألم . أما اللذة فهي شعور بأنه أتي عملا صالحا مطابقا للقواعد والمبادئ التي أقرها وسلم بخيريتها . وأما الألم فهو الشعور بالندم والتأنيب والتبكيت ، وهو ينشأ عن شعور الفاعل بأنه خالف ما يجب عليه فعله . وقد عني به الحدسيون وعدوه قوة فطرية تدرك الخير والشر حدسيا من غير خبرة سابقة ، وأنكر الطبيعيون ذلك ورجعوا به إلى التجربة ، وربطوا الحكم على أخلاقية الأفعال بنتائجها (١٦) .

وإذا كان القانون قوة ضبط خارجية فإن الضمير في المقابل قوة ضبط داخلية، ويري " ثورو " أن الأخير وليس الأول هو المنوط به إقرار ما يجب أن يفعله الإنسان أو لا يفعله . يقول : " ألا يمكن أن توجد حكومةٌ لا تقرر فيها الأغلبيات الحق والباطل ، بل يقررهما الضمير ؟ – حكومةٌ تقرر فيها الأغلبيات تلك المسائل فقط التي تنطبق عليها قاعدةُ تيسير المصلحة ؟ هل ينبغي أصلا على المواطن للحظة ، أو في الحد الأدنى ، أن ينزل عن ضميره للتشريع ؟ علام لكل إنسان ضمير إذن ؟ أعتقد أننا يجب أن نكون بشرا أولا ، وبعدئذ رعايا . إذ ليس من المرغوب أن يحرص على احترام القانون بقدر ما يحرص على الحق . إن الفرض الوحيد الذي يحق لي أن أُسأل عنه هو أن أفعل في أي وقت ما أراه حقا . لقد صدق إلى حد كبير من قال بأن الجمع لا ضمير له ؛ لكن جمعا من أصحاب الضمائر هو جمع ذو ضمير . لم يجعل القانون البشر أعدل بمقدار ذرة ؛

وبواسطة تهيبهم منه ، يصير يوميا ذوو النية الحسنة منهم حتى أدوات للظلم . " (١٧)

يبدو واضحا أن " ثورو " يقبل على مضض حكم الأغلبية ويظهر ذلك في اعتراضه على أن تكون حكومة الأغلبية هي من يقرر الحق والباطل من خلال حزمة من القوانين تسنها هذه الحكومة ، ويزعم أن من يقرر ذلك هو الضمير أي : قوة الضبط الأخلاقية المركوزة داخل الإنسان ، تلك القوة التي ترشده إلى التمييز بين الخير والشر . ثم نجده يقارن بين القانون والحق ، والأعجب من ذلك أنه يقرر " ... أن الفرض الوحيد الذي يحق لي أن أسأل عنه هو أن أفعل في أي وقت ما أراه حقا ... " . هذا ما يهدف إليه " ثورو " أعني أنه يفعل ما يري أنه حقا بالنسبة له ويترك ما لا يراه حق بالنسبة له . وهذه السفسطائية تعني : ما أري أنه حق بالنسبة لي فهو حق بالنسبة لي ، وأري أنه ليس حقا بالنسبة لي فهو ليس بحق بالنسبة لي . وتلك السفسطائية المقيتة تؤدي إلى تدمير الأخلاق ، والدين ، والقانون ،،،الخ . وهذه فردية متطرفة من قبل " ثورو " تؤدي إلى تخريب الشعوب والأوطان .

يبدو واضحا أن " ثورو " يغالى في فرديته : ، وهذا المذهب الفردي المتطرف على الرغم من أنه يعترف بكرامة الإنسان واستقلاله ، وأنه له حقوق يجب عدم التعرض لها ، مما كان له أثر كبير في تحرير الإنسان الفرد من دكتاتورية واستبداد الحكام ، والاعتراف بالمساواة بين أفراد الشعب . ورغم ذلك يزعم أنصار هذا المذهب العديد من المزاعم التي ليس لها نصيب من الحقيقة والواقع ، منها :

- أن الإنسان عاش منفردا ولم يعش في جماعة .
- للإنسان حقوق يجب أن يطالب بها وليس عليه واجبات .
- حصر الثروات في يد ثلة من الناس .
- الصالح العام هو مجموع المصالح الفردية (١٨) .

وهذه الفردية المتطرفة من قبل " ثورو " تعني أنه يؤمن بالبرجماتية المتوحشة التي أسس لها " وليم جميس " : William James (١٨٤٢ – ١٩١٠م) متأثرا بفردية " بروتاجورس " : Protagora السفسطائي (٤٢٠ – ٤٩٠ ق . م .) ومن هذا المنطلق يمكننا القول : إن " ثورو " هو البرجماتي وليس حكومة الأغلبية التي تسن القوانين التي يحتكم إليها المواطنون . تلك الأغلبية التي تحترم وتقدر وتثمن حقوق الأقليات ، وهذه هي الديمقراطية الحقيقية .

ويضرب " ثورو " مثالا على النتائج الكارثية المترتبة على الانصياع للقانون، فالجيش الأمريكي جنوده وضباطه لا يعلمون إلى أي منحدر سينقلبون بسبب تنفيذهم للأوامر أو قل بالأحرى القانون . يقول : " إن النتيجة الشائعة والطبيعية للاحترام المفرط للقانون هو احتمال رؤيتك رتلا من الجند – عقيدا ورائدا وعريفا وجنديا عاديا وغلام مدفعية وغيرهم – يمشون في نظام يبعث على الإعجاب ويقطعون التلال والوهاد إلى الحروب ، رغما عنهم – أجل ، ضد سليقتهم وضميرهم – الأمر الذي يجعل مشيهم مشقة كبيرة فعلا ، ويسبب خفقانا في القلب . لا ريب عندهم أن الأمر الذي تورطوا فيه أمر بغيض ؛ لكنهم يذعنون له مستكينين . أما وهذه هي الحال ، ما يكون هؤلاء ؟ أهم بشر أصلا ؟ – أم هم حصون ومخازن ذخيرة صغيرة متحركة في خدمة رجل صاحب نفوذ لا يتورع عن شيء ؟ زر رحبة السفن ، فتملَّى جندي بحرية ، رجلا كالذي وحدها حكومة أمريكية بوسعها أن تصنعه ، أو ما يمكنها أن تصنع من رجل بسحرها الأسود – تجد مجرد ظل للإنسانية وذكرى منها ، رجلا معروضا حيا للفرجة وواقفا ، ومدفونا سلفا ، إذا جاز القول ، تحت الأسلحة مع الموكب الجنائزي ، مع أنه لم يسمع طبل ، ولا نغمة جنائزية ، ونحن نعجل بجثته إلى المتراس ؛ ما من جندي أطلق رصاصة وداع على القبر الذي ووري فيه بطلنا. " (١٩)

إن جنود وضباط الجيش الأمريكي عبارة عن مجموعة من الآلات والماكينات التي تدفع إلى الموت دفعا دون أن يبدو رأيهم بكل حرية في هذا الأمر، إنهم يشبهون التماثيل ، إنهم قطع من الصلصال تنفذ الأوامر التي تأتمر بها فحسب، هؤلاء قيمتهم من قيمة العتاد أو الجماد الذي يستخدمونه ، إنهم لا يميزون بحسهم الأخلاقي عما إذا كانوا يخدمون الدولة أم لا ، إنهم ينفذون الأوامر فحسب . وقلة هي من الصالحين والوطنين من يقاوم هذه الأوامر ، قلة ترفض أن تكون قطعة من الصلصال تأمر فتطيع . هؤلاء يرفضون أن يكونوا معاونين للسلطة : Power .

ويطرح " ثورو " سؤالا علينا مهما : كيف يتعامل كل مواطن مع هذه الحكومة ؟ . يقول : " أجيب بأنه لا يستطيع أن يكون على صلة بها بدون أن يجلله الخزي . لا أستطيع برهة واحدة أن أعترف بذلك التنظيم السياسي حكومةً لي وهو حكومة العبيد أيضا . " (٢٠)

ويزيد " ثورو " الأمر وضوحا مبينا مفهوم الاستعباد ، فمن الطيش أن نقول أن الاستعباد هو استرقاق العبيد فحسب ، بل أنه قد يمتد إلى استرقاق أحدنا نفسه . يقول : " وأني لأعجب أحيانا أن يبلغ بنا النزق حدا يكاد يجعلني أقول : إنا لا نعني

من الاسترقاق إلا بالشكل الخشن منه ، ذلك الشكل الأجنبي البعيد عنا نوعا ما ، والذي نطلق عليه اسم استرقاق الزنوج . فثم كثيرون من السادة المتحمسين الأذكياء يبلغ بهم الخطل والمكر أن يسرقوا الشمال والجنوب معا ، إنه لعسير على المرء منا أن يكون عليه رقيب من الجنوب يسيطر عليه ، وأسوأ من ذلك أن يكون هذا الرقيب من أهل الشمال ، وأسوأ من هذا وذاك أن تكون أنت نخاس نفسك تسترقها وتستعبدها . " وهكذا يعتبر " ثورو " استعباد المرء لنفسه من أسوأ صور الاستعباد حتى أنه أسوأ من استعباد الأمريكان للزنوج (٢١) .

مما سبق يتضح أيضا أن الجنود والضباط الذي يعملون في الجيش الأمريكي لا قيمة لهم ، بل أنهم مجرد أدوات وآلات تأتمر بأوامر حكومة ظالمة يطلق عليها " ثورو " حكومة العبيد : Government slaves . ويمكن رد ذلك إلى العقيدة القتالية الخاصة بالجيش الأمريكي (٢٢) .

وتظهر هذه العقيدة في الاحتلال الأمريكي للعراق ، فقد كان جيش الاحتلال الذي غزا العراق في عام ٢٠٠٣ م بقيادة أمريكا - بدون قرار مسبق من مجلس الأمن الدولي - يضم حوالى خمسين دولة في مقدمتها أمريكا ، وكان عدد الجنود الأمريكيين في هذا الغزو هو الأكبر كما وكيفا .

ويشير د. محمد أحمد النابلسي في مقاله " سيكولوجية الجندي الأمريكي في العراق " إلى طبيعة الجندي الأمريكي والدوافع التي دفعته دفعا للانخراط في هذه الحرب . فهؤلاء الجنود يوصفون في بلادهم على أنهم فرق معدة للاستعراض العسكري وليس للحروب . ومناظرهم جميلة وكاملة التجهيز لكنهم غير مقاتلين . والكلام لجنرالات وكتاب أمريكيين .

أما عن العقيدة القتالية لهؤلاء فهي مستمدة من سيطرة مبدأ الرخاء على مجتمعهم وهي بالتالى عقيدة ربح . وهم يظنون بأن الآخرين لا يجرؤون على قتلهم أو حتى قتالهم . فإذا ما حدث فهم شديدو الثقة بتفوقهم العسكري التقني . فالمقاتل الأمريكي في العراق يسير وهو يحمل معدات بقيمة ٣٠ ألف دولار ليقاتل جائعاً محاصرا لا يملك سوي سلاحه الخفيف .

يترسخ جنون العظمة هذا عند الجندي الأمريكي عبر تصريحات رسمية قالها أحدهم : لقد خسرنا ٧٠ قتيلا مقابل ٧٠٠ عراقي من مدينة " الفلوجة " العراقية لكن استمرار مقاومة المظلومين يحول جنون العظمة إلى جنون احتقار للذات وقدراتها . فالجندي الأمريكي يريد الهروب من العراق . إذ فوجئ أن الحرب في العراق ليست رحلة صيد لقتل بعض البشر . فقد تحول العراق إلى مصيدة للقتل .

الجندي الأمريكي يتذكر اليوم ما سمعه من روايات عن حرب " فيتنام " ويتفهم سبب هروب الرئيس الأمريكي " بوش الابن " وكبار مسئوليه من تلك الحرب وهم يريدون بدورهم الهروب .

لذلك تم رصد :

- حالات الانتحار الوبائية بين الجنود الأمريكيين .
- ما عرف بالنيران الصديقة .
- تضخم السلوك الغريزي (أفعل كل شيء قبل أن أموت) .
- سيطرة الغرائز البدائية. ومن هنا تفجر الشذوذ والانحرافات الأخلاقية ذات الطابع الوحشي لدي الجندي الأمريكي .
- تنامي مخاوف الموت والرغبة في الهروب من العراق .
- الهروب من الخدمة فبعضهم يسلم ويتزوج عراقيات ويختبئ .
- عدم الجهوزية القتالية .
- غياب العقيدة القتالية لدى الجندي الأمريكي حيث أن الجيش الأمريكي لا يملك عقيدة قتالية تدفعه للتضحية بحياته .

وهذه الوقائع يجب أن تثبت للأمريكيين أنهم يملكون جيشاً مؤذياً ومدمراً لكنهم لا يملكون بحال جيشا مقاتلاً ، وليس أدل على ذلك من محاولات الرئيس الأمريكي " بوش الابن " المستميتة للهروب من العراق . ولو بثمن طلب الغوث الصهيوني ودفع ثمنه المستحيل . فشراكة الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين العربية في الورطة الأمريكية تحول الولايات المتحدة من دولة عظمى إلى رئيسة عصابة دولية يتحكم فيها الكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين العربية وتفرض الإتاوات على العالم عبر القوة الأمريكية (٢٣) .

المبحث الثاني : لا للدولة :

هكذا دولة من وجهة نظر " ثورو " لا يمكن أبدا السكوت على ما ترتكب من مذابح وكوارث ومصائب ، ولأجل ذلك يعلن صراحة وبدون أدنى مواربة أنه يرفض هذه الحكومة المتوحشة التي تدافع عن أقلية مغتصبة للسلطة ولا تعمل لصالح الجماهير .

المطلب الأول : رفض الولاء للحكومة .

يؤشر " جون لوك " : John Locke (١٦٣٢ – ١٧٠٤م) على أن الدور المنوط من الحكومة أن تلبي مطالب وآمال جماهيرها . يقول : " أعتقد أن السلطة السياسية تتمثل في وضع القوانين التي تنص على عقوبة الإعدام وجميع العقوبات الخفيفة الأخرى ، وتنظيم الملكية والمحافظة عليها ، واستخدام قوى المجتمع لتنفيذ

هذه القوانين ، وحماية ثروة البلاد من أي خطر خارجي ، وكل ذلك من أجل صالح الجمهور . " (٢٤) هذا هو الدور الطبيعي لكل حكومة منتخبة ديمقراطيا من قبل الجماهير . ولكن ماذا إذا انحرفت هذه الحكومة عن تلبية حاجات الشعب ؟ هل يحق للجماهير الثورة على هكذا حكومة دكتاتورية ومستبدة لا تلبي طموحاتها ؟! . هذا السؤال طرحه أحد المشاركين في الفوران الجماهيري الذي حدث في تونس نهاية ٢٠١٠ م بداية ٢٠١١ م ، والذي شارك ونظر لهذا الزلزال الجماهيري أثناء هذا الفوران وبعده . يقول عبد الرحمن النوضه : " هل يحق للشعب أن يغير النظام السياسي الذي يحكمه ؟ نعم ، لأن الغاية من وجود النظام السياسي هي خدمة الشعب ! فإذا انقلبت الأمور ، وغدي الشعب مسخرا لخدمة النظام السياسي القائم ، أصبح حق الشعب أن يثور ، وأن يتحرر ، لإقامة نظام سياسي يكون في خدمة الشعب . " (٢٥) وهذا ما يراه " ثورو " فالشعب أمام هذه الحكومة الدكتاتورية المستبدة التي تظلمه وتنهب خيراته ، وتفرض عليه ضرائب باهظة عليه أن يتمرد : revolt ويثور عليها ، خاصة أن هذه الحكومة أعلنت الحرب على دولة المكسيك الضعيفة . يقول : " البشر جميعاً يعترفون بحق الثورة؛ أي الحق في رفض الولاء للحكومة والحق في مقاومتها عندما يصير استبدادها أو تقصيرها عظيما أو لا يطاق . " (٢٦)

وهذا نفس ما يراه " جون لوك " ، ففي معرض حديثه عن عدم المساواة : Inequality بين الجماهير ، يؤكد على أن عدم المساواة هذه سترجع بنا إلى قانون الغابة أي البقاء للأقوى . يقول : " أما الرعايا الذين لا يملكون قانونا غير إرادة سيدهم ، وهذا السيد لا يتبع سوى عواطفه وأهوائه ، فقد اختفت مبادئ المساواة بالنسبة إليهم من جديد . وكان هذا بمثابة الرجوع إلى قانون الأقوى ، وبالتالى إلى طبيعة جديدة تختلف عن الحال الأولى ، فتلك كانت في نقائها الأول ، أما هذه فنتيجة فساد ضرب أطنابه واستشرى . وهناك اختلاف بين الحاكمين في نواح أخرى ، وقد انفرط عقد الحكومة على يد الطغيان ، فالطاغية هو السيد الوحيد مادام هو الأقوى . فإذا جاء الانبعاث الشعبي ليضع نهاية لهذا السلطان فإنه يكون قانونيا وشرعيا ، فطالما كان يستند إلى القوة وحدها ، فإن القوة أيضا هي التي تلقيه إلى الحضيض . وهكذا تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي ، ومهما يكن من الآثار التي تختلف عن الثورات ، فليس لأحد أن يشكو من ظلم آخر . " (٢٧) إذ الثورة على حكومة طاغية ومستبدة يعد عملا قانونيا وشرعيا ، الخروج على هذه الحكومة يكون بالقوة طالما هي تستند في نهبها للسلطة على القوة . ولكن " كارل بوبر " يرى عكس ذلك : أن الثورة على حكومة ذلت طبيعة استبدادية

واستبدالها بحكومة ديمقراطية يجب أن يكون بدون سفك دماء . يقول : " تكون الدولة حرة من الناحية السياسية إذا جعلت مؤسساتها السياسية بإمكان مواطنيها تغيير حكومة قائمة دون سفك دماء متى ما كانت الأغلبية راغبة " . أو بصورة أخرى مختصرة : نحن أحرار إذا كان بإمكاننا التخلص من حكامنا دون إراقة الدماء . " (٢٨) ولكن واقع الثورات يختلف عن ما يري " بوبر " فلا تخلو ثورة من سفك دماء .

المطلب الثاني : أصحاب رأس المال هم من يعارض الإصلاح .

قبل أن نشير إلي موقف " ثورو " المعارض لأيديولوجيات أصحاب رؤوس الأموال البرجماتية يجب أن نعرض للثورة التي جرت في بوسطن . ورد في الموقع الإلكتروني لوزارة الخارجية الأمريكية ، وفي مواقع إلكترونية أخري ، كثيرا من المعلومات عن الاستقلال الأمريكي عن الاحتلال البريطاني . نوجز هنا ما ورد في هذه المواقع عن ما فعله الأمريكيون ضد الاحتلال البريطاني حتى يحصلوا على الاستقلال . لقد عرف الأوروبيون الأراضي الأميركية على أنها " العالم الجديد " بلاد المال والثروة ، وبدؤوا موجات متتالية من الهجرة إليها منذ اكتشفها " كريستوفر كولمبوس " : Christophorus Columbus (١٤٥١ – ١٥٠٦م) ، وكان أكثر المتوافدين على هذه البلاد الجديدة الإنجليز الذين دخلوا في معارك شديدة قضوا فيها على " الهنود الحمر " السكان الأصليين للبلاد في مذابح مازالت تمثل عاراً للغرب .

المستوطنون الإنجليز الذين غادروا الوطن الأم إلى أميركا الوطن البديل ، التي كانت مستعمرة إنجليزية ، بحثاً عن حياة أفضل وأكثر ثراء وحرية لم تكن لديهم رغبة في إبقاء الصلة ببلادهم التي جاؤوا منها ، لذلك كان الصدام بين المهاجرين وبريطانيا محتما والثورة ضرورة... فصنعوا الثورة الأميركية لتخرج من رحمها دولة قوية وإمبراطورية مسيطرة على العالم الآن .

بدأت إرهاصات الثورة عندما خرجت إنجلترا منتصرة في حرب السبع سنوات (١٧٥٦ – ١٧٦٣ م) بعد أن تمكنت من هزيمة فرنسا وطردها من مستعمراتها في العالم الجديد خصوصا كندا ، وهو ما اعترفت به فرنسا في معاهدة باريس ١٧٦٣م ، وتحول المحيط الأطلسي إلى بحيرة إنجليزية بامتياز... عندها قررت رفع سقف المعونات العسكرية والمالية المفروضة على المستعمرات البريطانية ، وهو ما أثار حالة من الاستياء ضد السياسة الملكية المستبدة . ومنذ أن تولى الملك " جورج الثالث " (حكم ١٧٦٠-١٨٢٠م) مقاليد الحكم ، وهو يحاول

تدعيم السلطة المركزية في أرجاء الإمبراطورية . وكان طبيعيا أن يزيد من حجم القوانين التي تقيد المستعمرات البريطانية في أميركا الشمالية.

مما أدى إلى موجة عارمة من الاستياء العام ضد الإدارة المركزية في لندن ، فتحدي المستوطنون القرار الظالم من جهة . فقد أجبر كل من يريد التجارة مع الهنود من المستوطنين على أن يحصلوا أولا على رخصة من السلطات البريطانية، كما منعوا من شراء الأراضي من الهنود...

وأثار ذلك غضبهم وقاموا بالتوسع غربا متجاوزين الحد الفاصل الذي عينته الإدارة البريطانية ، فلم تكسب لندن من هذا القانون إلا المزيد من العداء مع المستوطنين .

ولما كان اقتصاد بريطانيا في حاجة إلى موارد جديدة ، فلم يجد رجال الاقتصاد أفضل من فرض الضرائب على المستعمرات كعلاج سريع للأزمة التي ضربت ميزانية الدولة . وكان أول هذه القوانين قانون السكر ١٧٦٤م ، الذي قضى بعدم استيراد العسل الأسود إلا من المناطق الواقعة تحت السيطرة الإنجليزية ثم فرضت الضرائب على العسل والنبيذ والحرير والبن والعديد من المنتجات ، فيما قررت السلطات البريطانية التشدد في تنفيذ هذه الإجراءات المالية ومكافحة أعمال التهريب . كما أن القانون جاء في صيغة يفهم منها أن الهدف منه ليس الارتقاء بالمستعمرات التي جمع منها الضرائب والرسوم ، ولكن لخدمة المملكة ، وهو ما جعلهم يشعرون بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية .

يضاف إلى ذلك قانون العملة الذي سلب الصفة القانونية للأوراق المالية المتداولة في المستعمرات ، وقانون التمرد الذي طبق على المستعمرات كلها وهو أشبه بقانون التجنيد الإلزامي لكن لغرض قمع التمردات في المستعمرات .

أثار المتضررون ضجة كبيرة مضادة لذلك القانون أثرت في الرأي العام الرافض أصلا لسياسة التدخل البريطاني في شؤون المستعمرات ، وأخذت ولاية فرجينيا زمام المبادرة فى رفض هذا القانون . ثم حذت مساتشوستس : Massachusetts حذوها ، التي أرسى مجلسها التشريعي قاعدة قانونية مهمة في تاريخ الولايات المتحدة الأميركية عندما قرر أنه ليس من حق البرلمان البريطاني فرض أى ضرائب على المستعمرات لأنها غير ممثلة في برلمان المستعمرة فلا ضريبة دون تمثيل .

لم تلبث روح المعارضة أن انتشرت في كل أنحاء المستعمرات ، وتشكلت جماعة أطلقت على نفسها اسم " أبناء الحرية " وأخذت تدعو لمقاومة الضرائب

الجديدة بشكل منظم ، وقاموا بأعمال التهديد وحرق هذه الطوابع وأجبروا موظفي الطوابع على الاستقالة .

انتصر المستوطنون في أول مواجهة لهم مع بريطانيا العظمى ، وهي معركة بلا سلاح حقيقي لكنها فاقت في نتائجها معارك البارود ، فقد شعر المستوطنون بقوتهم وتأكدوا من ضعف الحكومة البريطانية أمام قدرتهم الاقتصادية المتصاعدة التي أجبرت التجار البريطانيين على الضغط على الحكومة من أجل التراجع ، لذلك كانت مسألة الثورة من قبل المستوطنين مسألة وقت ليس أكثر . في حين اعتبرت بريطانيا أن الجولة الأولى قد انتهت فقط وأن هناك العديد من الجولات التي ستنتهي بضرورة إخضاع جميع المستعمرات لإرادة لندن ، لذلك وبين انتشاء المستوطنين بانتصارهم ورغبة بريطانيا في المزيد من القيود كان لابد من الصدام من جديد .

مذبحة بوسطن:

قرر مجلس رئاسة الوزراء في بريطانيا تنفيذ سياسة الملك الهادفة لإخضاع المستعمرات ، لذلك أصدر في عام ١٧٦٧م أوامره لمستعمرة نيويورك بحل المجلس التشريعي فيها الذي رفض الموافقة على قانون الإسكان ، وكان يهدف إلى جعل تلك المستعمرة الصغيرة عبرة لمن يعتبر في بقية المستعمرات ، فرض المجلس أيضا ضرائب على استيراد المستعمرات الشاي والورق والرصاص ، على أن تستخدم حصيلة هذه الضرائب لدفع مرتبات الحكام والموظفين الإنجليز في المستعمرات ، كما أنشأ إدارة جديدة للجمارك وأعطاها السلطة القانونية الكافية لمنع عمليات التهريب . رفضت جميع المستعمرات القوانين الجديدة ولم تجد الجماهير الغاضبة التي لم يكن ينقصها الحماس إلا رجال الحامية البريطانية في بوسطن لتفريغ شحنة الغضب من الإدارة البريطانية فهاجموا مقر الحامية ، أطلق الجنود النار على المتظاهرين فسقط ثلاثة قتلى من المتظاهرين في حين أصيب آخرون فيما عرف باسم " مذبحة بوسطن " ٥ مارس ١٧٧٠م .

أمام هذا الرفض الشعبي وانخفاض صادرات بريطانيا إلى المستعمرات الأميركية إلى النصف ، تراجع البرلمان البريطاني وألغى ضرائب مجلس رئاسة الوزراء ما عدا ضريبة واحدة .

لكن تيار الاستقلال كان يشتد تحت سطح العلاقات الهادئة وأثناء ذلك استمر النضال في سبيل إلغاء ضريبة الشاي الممثل الأخير لمبدأ حق البرلمان البريطاني في فرض الضرائب ، وقد تجاوب الأميركيون جميعا مع دعوة مقاطعة الشاي

الإنجليزي وأقبلوا على شراء الشاي المهرب من المستعمرات الهولندية ، لإظهار تحديهم صراحة لرغبة ملك بريطانيا في التدخل في شؤون المستعمرات .

حفلة شاي بوسطن : Boston Tea Party :

قررت الحكومة البريطانية من جانبها أن تعطي شركة الهند الشرقية في عام ١٧٧٣م حق احتكار بيع الشاي في المستعمرات ، ولضرب حركة تهريب الشاي في المستعمرات الأميركية عمدت إلى تخفيض سعر الشاي ليصبح أرخص من سعر الشاي المهرب وهو ما هدد تجارة الشاي المحلية بالتوقف ، وجعل تجار الشاي يغضبون من هذا الاحتكار الذي كان احتكارا لصالح شركة بريطانية في الأساس ، وانضموا للناقمين على السياسة البريطانية ، وشجعوا على استعمال القهوة والشوكولا بدلا من الشاي ، ورفضوا تسلم شحنات الشاي التي جاءت بها الشركة .

وأمام إصرار حاكم بوسطن الإنجليزي على تفريغ حمولة شاي جاءت بها ثلاث سفن ، بادرت فرقة من الوطنيين متنكرين بزي الهنود إلى دخول السفن وإلقاء حمولتها من الشاي في البحر ، وكان ذلك في ليل ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٣ م وهي الحادثة المعروفة في التاريخ باسم " حفلة شاي بوسطن " ، وهكذا ألقى المستعمرون الأميركيون بالقفاز في وجه الملك البريطاني الذي لم يطالب باسترجاع نفوذه المتداعي في شرق الأطلسي فحسب ، بل باسترجاع كرامته المهدرة في المقام الأول .أثار هذا العمل العنيف موجة عارمة من الاستياء والغضب في الأوساط البريطانية ، ولم يعد هناك مفر من المواجهة فالملك ومعه الحكومة والبرلمان أصبحوا في موقف حرج . واتخذ الملك المزيد من الإجراءات العقابية ضد مستعمرة مساتشوستس وبدلا من أن تساهم هذه الإجراءات في إخضاع المستعمرات الأميركية كما كان يأمل السياسيون في لندن إذا بها تؤدي إلى رفع راية العصيان ، فلم تخضع مستعمرة مساتشوستس بل ووقفت بجانبها مختلف المستعمرات . وأمام هذا التشدد من جانب الملك أخذت المستعمرات في التسلح ، ففي ماساتشوستس بدأت تظهر عمليات المقاومة . فبادر الوطنيون إلى طرد حكام المستعمرات التابعين لبريطانيا واستلموا إدارة الأمور للدفاع عن بلدانهم .

وفي ١٠ مايو سنة ١٧٧٥م تبنت المستعمرات المختلفة الجيش الصغير في بوسطن باعتباره جيشا أميركيا يخص كل المستعمرات ، وقد عينوا لقيادته " جورج واشنطن " ، وأطلق على الجيش الموحد اسم " جيش القارة الأميركية " .

أصبحت الكرة الآن في ملعب الملك والإدارة البريطانية فكان بإمكانها بمزيد من المرونة أن تستوعب مثل هذه التظاهرات بمزيد من التخفيف الضرائبي مع الاعتراف بالأشكال التنظيمية التي بدأت تظهر في المستعمرات ، إلا أن الملك رفض الطريق السهل وقرر قبول التحدي ورفعه إلى مستوى أعلى فقد أصدر في 23أغسطس سنة ١٧٧٥م تصريحا أعلن فيه أن المستعمرات الأميركية في حال عصيان ، رافضا في الوقت ذاته مقابلة رسول المستعمرات الذي حمل مشروعا للسلام . وهو ما رد عليه الثوار بتنفيذ هجوم في ربيع ١٧٧٦م على مدينة بوسطن بقيادة " واشنطن " نفسه أسفر عن تحرير المدينة وطرد القوات البريطانية منها . بذلك دخلت العلاقة إلى النفق المظلم ، ولم يعد هناك ما يقال ، فقد أعلنت الثورة الأميركية على السيادة البريطانية وبدأت حرب الاستقلال الأميركية (٢٩) .

ويستشهد " ثورو " بما جرى في ثورة في ماساتشوسيتس على أن من يقاوم الإصلاح هم أصحاب رؤوس الأموال . أي : أصحاب المصالح البرجماتية المتوحشة في مواجهة الجماهير المستعبدة . ما حدث في ماساتشوسيتس ثورة أطلق عليها " حفلة شاي بوسطن " . يقول : " ليس المعارضون للإصلاح في ماساتشوستس مئة ألف سياسي في الجنوب ، بل هم مئة ألف تاجر ومزارع هنا ، همهم التجارة والزراعة أكثر من الإنسانية ، وليسوا مستعدين لإنصاف العبد والمكسيك ، مهما كلف الأمر . لست على خصام مع الأعداء البعيدين ، بل مع القريبين في الوطن الذين يتعاونون مع أولئك البعيدين ويزايدون عليهم ، القريبون الذين بدونهم يكون البعيدون مأموني الجانب . لقد اعتدنا أن نقول بأن جمهور البشر غير مستعد ؛ غير أن التحسين بطيء لأن الصفوة ليسوا مادياً أوفر حكمة أو أفضل من الجمهور . فليس من الأهمية بمكان أن يعادلك الكثيرون خيرا ، بقدر ما يهم أن يوجد خير مطلق ما في مكان ما . " (٣٠)

لقد عنون " بارنتي " الفصل الثالث من كتابه " ديمقراطية للقلة " بـ " ثقافة الطبقة الغنية الحاكمة المؤسسات والإيديولوجيات " ، وهذا العنوان يعبر عن هيمنة قلة من الأغنياء أو قل من الشركات الغنية على الدولة الأمريكية وهذا مركوز في كل المؤسسات الحكومية والمدنية . ويعبر الكاتب عن ذلك في صدر هذا الفصل بقوله : " لا تمثل الرأسمالية الأمريكية مجرد نظام اقتصادي ، بل هي نظام ثقافي واجتماعي شامل . إنها حكومة أغنياء ، ونظام للحكم يمارسه الأغنياء في غالب الأحوال ويستهدف تحقيق مصلحتهم . ويتم تنظيم الجامعات ، ودور النشر ، والمجلات واسعة الانتشار ، والصحف ، ومحطات الإذاعة والتلفزيون ، والفرق الرياضية المحترفة ، والمؤسسات ، والكنائس ، والمتاحف الخاصة ،

والمنظمات الخيرية والمستشفيات على هيئة شركات كبري تحكمها مجالس إدارة، تتكون من مديرين أو أمناء أو أعضاء جلهم من رجال الأعمال . وتصدر هذه المجالس الأحكام النهائية فيما يخص الأمور المتعلقة بكل من تلك المؤسسات . " (٣١)

ويؤكد " ثورو " على أنه يوجد الكثيرون ممن يرفضون الرق والحرب ضد المكسيك ولكن نادرا ما نجد منهم من يفعل شيئا لإلغاء الرق الذي هو ضد الحرية وإيقاف الحرب العدوانية ضد دولة مجاورة .

المطلب الثالث : التصويت تلاعب بالحق والباطل .

يعد التصويت أمام صناديق الاقتراع أحد أدوات الديمقراطية ومظهر من مظاهر المشاركة السياسية ، المشاركة السياسية التي ترتبط بالوعي . فلا يمكن " أن يشارك المواطن في مجال السياسة وهو في حالة استرخاء ، فعلى الفرد الذي يدلي بصوته في الانتخابات التوقيع على بطاقة الانتخابات وكتابة خطابات ، والتوجه إلى مكان الاقتراع فالفرد إما أن يدلي بصوته أو لا يدلي وإما أن يرسل خطابا أو لا يرسل خطابا ، وإما أن يذهب إلى مكان الاقتراع أو لا يذهب إلى مكان الاقتراع ، فالمواطنون يقومون بنشاط ، أي : بعمل وبعبارة أخرى فإن من يدلون بأصواتهم على وعي بأنهم يدلون بأصواتهم ، وأعضاء المنظمات على وعي بعضويتهم ومن يقومون بالحملات الانتخابية على وعي أنهم يقومون بحملات انتخابية ومن ثم يمكن اعتبار المشاركة مرتبطة بالوعي على أساس أن الأفراد لابد أن يكونوا على وعي بالنشاط الذي يقومون به سواء كانت هذه الأنشطة عقلانية أو لا ولكنها أنشطة واعية . " (٣٢) المهم أن يشارك ويعبر عن رأيه في مشاركة سياسية على مستوي الدولة حيث يشارك كل المواطنين ، والأهم أن المواطن ينبغي أن يكون على وعي تام بما يقوم به .

وعلى الرغم من ذلك فإن " ثورو " يرى أن المشاركة السياسية بالتصويت في الانتخابات غير حقيقية وغير واقعية . يقول : " كل تصويت فهو ضرب من اللعب، مثل الدَّامة والنرد ، عليه مسحةٌ خفيفة من الأخلاق ، فهو تلاعب بالحق وبالباطل ، تلاعب بالمسائل الأخلاقية ؛ وهو يترافق بالطبع مع الرهان . إن طبع المصوتين ليس موضع رهان . أدلي بصوتي ، ربما، لصالح ما أظنه حقا ؛ لكني لست معنياً حيوياً بأن يسود الحق . أوثر أن أفوض الأمر إلى الأكثرية . لذا فإن التزامها لا يتعدى الالتزام بتيسير المصلحة . وحتى التصويت لصالح الحق لا يفعل من أجله شيئا . إنه تعبيرك للناس تعبيرا واهنا عن رغبتك في سيادته ، ليس إلا . أما الرجل الحكيم فلن يترك الحق لرحمة المصادفة ، كما لن يتمنى له أن

يسود عبر سلطان الأكثرية . ليس في عمل جماهير البشر إلا القليل من الفضيلة . وإذا اتفق للأكثرية أن تصوت أخيرا على إلغاء الرق فسيكون ذلك لأنهم غير مكترثين بالرق ، أو لأنه لم يبق إلا القليل من الرق يلغيه تصويتهم . وإذ ذاك لن يكون من عبيد سواهم . وحده من يؤكد بصوته على حريته هو يستطيع صوته أن يعجل في إلغاء الرق . " (٣٣) .

التصويت في الانتخابات لا يؤدي إلى حكومة رشيدة تقوم بتحقيق مطالب الجماهير وآمالهم ، ولا يقضي على العبودية ، ولا يحقق الحرية والعدل والحق . هذه هي نظرة " ثورو " إلى الديمقراطية الأمريكية ، أنها تخيب آمال الجماهير وطموحاتهم . وهذا يتعارض مع ما تنشره وزارة الخارجية الأمريكية – على سبيل المثال لا الحصر – حول لعبة الديمقراطية . فمن يطالع الصفحة الإلكترونية لوزارة الخارجية الأمريكية يجد أحاديث مطولة عن الديمقراطية ، أحاديث تمتدح الديمقراطية الأمريكية . ومن ذلك :

- الانتخابات الحرة والمنصفة ضرورة أساسية للحصول على موافقة المحكومين التي تشكل بحد ذاتها حجر الأساس للسياسات الديمقراطية . وتعتبر الانتخابات الآلية الرئيسية لترجمة تلك الموافقة إلى سلطة حكومية .
- الانتخابات الديمقراطية ليست مجرد عملية رمزية ... إنها انتخابات تنافسية ، دورية ، شمولية ، ونهائية ، يتم خلالها اختيار صانعي القرارات الرئيسيين في الحكومة من قبل مواطنين يتمتعون بحرية واسعة في انتقاد الحكومة ، وبنشر انتقاداتهم ، وتقديم البدائل .
- الانتخابات الديمقراطية دورية . لا تنتخب الأنظمة الديمقراطية حكاما ديكتاتوريين أو رؤساء مدى الحياة . إذ يخضع المسئولون المنتخبون للمساءلة من جانب الشعب ويجب أن يرجعوا إلى الناخبين في فترات محددة إما لضمان استمرار تفويضهم أو لمواجهة خطر خسارة مراكزهم من خلال نتائج التصويت .
- الانتخابات الديمقراطية نهائية. إنها تحدد قيادة الحكومة لفترة زمنية مقررة . يتولى ممثلون منتخبون شعبياً زمام الحكم ، ولا يكونون مجرد رؤساء صوريين أو قادة رمزيين .
- الانتخابات الديمقراطية ليست ، في النهاية معركة للبقاء بل منافسة للخدمة .

الفصل الثاني
الثورة ضد الدولة

إذا كانت الديمقراطية لا تحقق إرادة الجماهير أو أغلبية الشعب فهي مجرد خدعة كبيرة من قبل قلة ضئيلة لتستولي على مقدرات الجماهير بتزييف وعيها . وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - فمن حق الجماهير أن تعلن التمرد والخروج على هذه الحكومة المزيفة التي تعمل لصالح قلة من أصحاب رؤوس الأموال وليس لصالح الجماهير .

المبحث الأول : المقاومة اللاعنفية ضد الدولة :

يرى " ثورو " أن على المواطن الأمريكي أن يقاوم هذه الحكومة التي تكافح لتسير مصالح الأغنياء وليس الجماهير ، عليه الخروج على هذه الحكومة التي تسن قوانين جائرة لصالح الأغنياء . ويرى أيضا أن هذه الخروج والفوران الثوري من قبل الجماهير يجب أن يكون سلميا وليس عنيفا

المطلب الأول : مقاومة الدولة والتمرد عليها :

المواطن الأمريكي لا يكترث بالمشاركة السياسية ، فهو يعتبر صوته الانتخابي لا قيمة له ، بل هذا الصوت يتساوي مع صوت الأجنبي أو المرتزق ، وهذا الإنسان اتكالى في كل ما يعن له في حياته اليومية . يقول : " ألا توفر أمريكا أي ترغيب للرجال لكي يستقروا هنا ؟ لقد تضاءل الأمريكي حتى أمسى مخلوقا عجيبا – مخلوقا يعرف من نمو عضو قطيعيته ومن نقص في عقله وفي اتكاله البهيج على النفس ؛ مخلوقا همه الأول والرئيسي لدى قدومه إلى العالم ، هو التأكد من أن دور الإحسان في حالة صالحة ؛ همّه ، حتى قبل أن يرتدي زي الرجولة ، أن يجمع التبرعات لدعم الأرامل واليتامى المفترضين مخلوقا ، لا يغامر بالعيش إلا بمعونة شركة التأمين التعاونية التي وعدت أن تدفنه دفنا لائقا . " (٣٥)

ويستطرد " ثورو " في حديثه معلنا أنه يجب على كل مواطن أمريكي أن يغسل يديه – على الأقل – من كل باطل كائن داخل الدولة ، ولا يجب أن أدع مواطن آخر يقوم بذلك نيابة عني بل على أن أترك له المجال هو الآخر لكي يسعى إلى تحقيق مطالبه . إن أولئك الذين يدينون بالولاء للحكومة وينفذون أوامرها هم أنفسهم يصفقون لمن يرفض الذهاب من الجنود للحرب في المكسيك . يقول : " وهكذا فإنه تحت عنوان النظام والحكومة المدنية نرغم جميعا في النهاية على تأدية فروض الولاء لخستنا وعلى تعزيزها . فبعد حياء المعصية الأولى تأتي اللامبالاة بها ؛ وهذه منكرة تصير لا أخلاقية ، إذا جاز القول ، وليست غير ضرورية تماما

لتلك الحياة التي صنعناها . " (٣٦) إن التناقض الذي يوجد في أمريكا بين الولاء للحكومة وتنفيذ أوامرها ومقاومتها في ذات الوقت يستلزم من كل المواطنين حل هذه المشكلة لأن عواقبها وخيمة . ويقول : " إن العمل بمقتضى مبدأ وإدراك الحق وإحقاقه ، يغير في الأشياء وفي العلاقات ؛ وهو ثوري من حيث الجوهر ، ولا يتسق بالتمام مع أي شيء كان . إنه لا يشطر الدول والكنائس وحسب ، بل والعائلات أيضاً ؛ لا بل ويشطر الفرد ، مفرزا الشيطاني فيه من الإلهي . " (٣٧)

لكن " هنتنجتون " : Samuel P. Huntington (١٩٢٧ – ٢٠٠٨م) في معرض حديثه عن الأنظمة السياسية يطرح وجهة نظر مخالفة لوجهة نظر " ثورو " . فعندما يقسم الأنظمة السياسية لأنظمة فاعلة وأخرى ضعيفة ، ويعد أمريكا من الأنظمة الفاعلية كبريطانيا والاتحاد السوفيتي ، يرى أن أمريكا دولة ديمقراطية تعمل حكوماتها لتحقيق أهداف شعبها ولذلك يطيع شعبها أوامر الحكومة . فعلى الرغم من اختلاف الحكم في كل دولة من الدول سالفة الذكر ، إلا أنه يوجد في كل دولة منها " متحد سياسي فيه إجماع عارم من قبل الشعب على شرعية النظام السياسي . وفي كل دولة يشترك المواطنون وقادتهم في رؤية المصلحة العامة للمجتمع والتقاليد والمبادئ التي يبني على أساسها المتحد السياسي . في هذه الدول الثلاث مؤسسات سياسية قوية ومتكيفة ومتماسكة : بيروقراطيات فاعلة ، وأحزاب سياسية حسنة التنظيم ، ودرجة عالية من المشاركة الشعبية في الشؤون العامة ، وأنظمة سارية من الرقابة المدنية على القوات المسلحة ، ونشاط شامل للحكومة في مجال الاقتصاد ، وإجراءات معقولة من أجل تنظيم انتقال السلطة وضبط الصراع السياسي . هذه الحكومات ترعى ولاء مواطنيها وهي بالتالي ، تمتلك القدرة على فرض ضريبة الموارد ، وتجنيد القوة البشرية ، وتحديد سياسة معينة وتنفيذها . وحين يتخذ المكتب السياسي ، أو مجلس الوزراء أو رئيس الجمهورية قرارا ، فمن المرجح أن يتم تنفيذه من خلال آلية الحكم . " (٣٨)

المطلب الثاني: الثورة السلمية ضد الدولة .

الحكومة ظالمة ، وقوانينها ظالمة ، ومطلوب من الشعب إما التمرد عليها أو المطالبة بتغيرها . ويجب على الحكومة أن تبادر وترجو الشعب أن ينبهها دائما إلى ما تقع فيه من أخطاء تجاهه ، وعليها أيضا أن تقدم الخير للشعب قبل أن تطالبه بطاعة قوانينها . ولكن ذلك لا يحدث بل يحدث العكس فنجد الحكومة طبقا للقوانين تحكم على شخصا ما بأقصى العقوبة لانتهاكه قانونا ما . وهذا ما حدث – مثلا – مع " جورج واشنطن " :George Washington (١٧٣٢ – ١٧٩٩م)

و" فرانكلين روزفيلت " : Franklin Roosevelt (١٨٨٢ – ١٩٤٥م) اتهمتهم الحكومة بالتمرد . رغم أن القوانين التي أصدرتها الحكومة هي السبب في تمردهم وتمرد غيرهم (٣٩) . ولذلك علينا إنكار هذه القوانين فتلك هي الإساءة الوحيدة التي يمكننا أن نوجهها للحكومة .

وينبه " ثورو " كل مواطن إلى أنه إذا نزل عليه ظلم من الحكومة فعليه تحمله، ولكن إذا كان هذا الظلم سيجعله سببا في ظلم مواطن آخر فيجب التمرد على هذا القانون الجائر . يقول : " لكن إذا كان الظلم من طبيعة تتطلب منك أن تصير أداة ظلم لغيرك ، عندئذ أقول لك : خالِف القانون ؛ ولتكن حياتك احتكاكا مضادا لوقف الآلة . فما ينبغي على أن أفعله هو التيقن ، في كل حال ، من أني لا أشارك في الباطل الذي أدينه . " (٤٠) بل ينبغي على المواطن المشاركة في مواجهة هذا الباطل الذي تفرضه الحكومة الظالمة على الشعب .

إن " ثورو " في ضوء كل ما سبق يعتبر دستور هذه الحكومة دستورا شريرا، وعلى الجماهير أن تبذل الغالى والثمين في سبيل مقاومة دستور وقوانين هذه الحكومة الجائرة . هذه الحكومة التي تساند الرق : Slavery وتشرعه . وعلى من يدعون أنهم ضد الرق والعبودية أن يسحبوا دعمهم لهذه الحكومة ويكفيهم أن الإله سيكون في صفهم . فإذا رجل واحد فاضل وشريف اعتق عبدا عنده فهو يساهم في الانسحاب من شراكة حكومة ظالمة حتى وإن تعرض لاضطهاد الحكومة ، التي ستتهمه بمخالفة القانون وتعاقبه بالسجن . إن هذا الرجل الوحيد سيساهم – حتى لو كانت المساهمة صغيرة الحجم – في إلغاء العبودية في أمريكا (٤١) .

من يستقرىء التاريخ يجد أن ثورة الأمريكيين على الاستعمار البريطاني صاحبتها ثورة أخرى تنادي بإلغاء العبودية ، وبعد انتهاء الحرب مع البريطانيين استمر الأمريكيون في المطالبة بإلغاء العبودية . لقد تم تأسيس جمعية في فلادليفيا : Philadelphia عام ١٧٧٥ م لمناهضة العبودية ، وكان رئيسها " بنجامين فرانكلين " : Benjamin Franklin (١٧٠٦ – ١٧٩٠ م) ، أحد أهم وأبرز من ساهم في تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية . الذي أخذ على عاتقه إنشاء فروع للجمعية في مدن أمريكية أخرى . وكان يقف في الجهة الأخرى بعض الأمريكيين الذين يرفضون إلغاء العبودية .

وعلى الرغم من ذلك أصدر الكونجرس الأمريكي قانونا عام ١٨٠٨ م يلغي تجارة العبيد في عهد الرئيس الأمريكي " توماس جيفرسون " : Thomas Jefferson(١٧٤٣ – ١٨٢٦ م) المفكر والسياسي الأمريكي المشهور أحد

الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية ، وهو الرئيس الثالث لأمريكا . واستمر الأمريكيون في مناهضة العبودية إلى أن انتهت تجارة العبيد تماما وإن كان الأمر استغرق وقتا طويلا . ولا يرجع ذلك إلى " المصالح الاقتصادية القوية المرتبطة باقتصاد المزارع في الجنوب فقط ، ولكن إلى تورط الطبقة الحاكمة الشديد أيضا حيث كان العديد من أعضاء الكونغرس يمتلكون عبيدا . لم تكن الولايات المتحدة هيكلا قويا له تراثه المتين ولكن كانت مجرد فيدرالية حديثة وهشة مكونة من المستعمرات السابقة ، تحولت إلى ولايات ذات توترات ملحوظة في الحكم الذاتي . لذلك رأي الكثيرون في الهجوم على العبودية هجوما على الوحدة ... إذن كانت العبودية " سرطانا ضخما " في الجسد الأمريكي . زادت الرغبة في الاحتفاظ بمجتمع موحد يخلو من الاختلافات الحادة في النصف الأول من القرن التاسع عشر على المستوي الفيدرإلى : في الجنوب ، وباسم النقاء " العنصري " ، كانت هناك محاولات لتجنب أي شكل من أشكال اختلاط الأجناس وكانوا يستبعدون أي تحرير يمكن أن يؤدي إلى تكوين طبقة من السود الأحرار . " (٤٢)

المطلب الثالث : الثورة السلمية ضد الدولة :

إن كل مواطن شريف وعادل معرض للسجن إذا خالف قوانين الدولة المارقة، إن كل مواطن من هذا النوع سار في الحياة وفقا لمبادئه وليس وفقا لمبادئ الدولة مصيره السجن . هذا المواطن في السجن سيلتقي أمثاله من الشرفاء أمثال : الذين رفضوا دفع الضرائب للجابي – موظف الدولة المسئول عن تحصيل الضرائب -، ومن يدافع عن قانون إلغاء العبودية ، ومع المواطن المكسيكي الذي أسر في الحرب ، والهندي الذي يدافع عن نفسه وعن أهله ضد المواطنين الجدد . إن الدولة تحرم كل هؤلاء الشرفاء وأشباههم من كل حقوقهم ، فالأقلية – على نحو ما يصرح – حينما ترضخ للأكثرية تكون منزوعة القوة (٤٣) .

ويطرح " ثورو " تعريفا للـ " ثورة السلمية " التي يجب أن يقوم بها المواطنون ضد هذه الحكومة الظالمة من خلال المثال الآتي : يقول : " هب أن ألف رجل استنكفوا عن دفع فواتير ضرائبهم هذا العام ، فهذا لن يكون إجراء عنيفا ودمويا ، كما سيكون فيما لو دفعوها ، ومكَّنوا الدولة بذلك من ارتكاب العنف وسفك دم بريء . وهذا في الواقع ، هو تعريف الثورة السلمية ، إذا أمكن أن توجد ثورة كهذه . " (٤٤) ص ١٠وهذا النوع من الثورة يتخذ أكثر من صورة كلها تؤشر على أسلوب اللاتعاون الذي يتخذه المواطن تجاه الدولة . والثورة السلمية أو المقاومة اللاعنفية قام بها الإنسان في مختلف العصور والأزمنة والأماكن . ويشير

إلى ذلك جين شارب : " Gene Sharp " (ولد ١٩٢٨ - ... م) فيلسوف المقاومة اللاعنفية الصهيوأمريكي بقوله أنه يوجد : " أمثلة على النضال اللاعنيف في العديد من الثقافات والحقبات التاريخية والظروف السياسية المختلفة ، سواء كان هذا في الشرق أو الغرب من العالم أو في البلدان الصناعية أو البلدان غير الصناعية . ولقد طبقت وسائل اللاعنف في البلدان الديمقراطية وفي البلدان التي كانت تقع تحت أحكام الإمبراطوريات ، واستخدمت أيضا لمقاومة العدو الأجنبي والأنظمة الدكتاتورية . وقد استخدمت وسائل اللاعنف عن آلاف القضايا والجماعات وحتى من أجل تحقيق أهداف وقف العديد من الناس في وجهها . كما أنه تم استخدام اللاعنف لمنع أو لإحداث تغيير معين ، ولكن أحيانا ما استخدم العنف المحدود في مثل هذه الأعمال . تنوعت القضايا التي استخدمت فيها أساليب اللاعنف لتشمل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والعرقية والوطنية والإنسانية والسياسية ، سواء كانت قضايا أساسية أو قضايا غير أساسية . " (٤٥)

ويطرح " ثورو " صورة أخرى من صور اللاتعاون الذي يمكن للمواطن أن يقوم بها ضد الحكومة الظالمة ، أن يتقدم المواطن باستقالته من وظيفته في الحكومة . يقول : " فإذا سألني جابي الضرائب ، أو أي موظف دولة آخر ، كما سألني أحدهم فعلاً : " ولكن ماذا سأفعل ؟ " فجوابي سيكون : " إذا أردت حقا أن تفعل شيئا ، استقل من وظيفتك . " إذ عندما يرفض الفرد من الرعية الولاء ، ويستقيل الموظف من وظيفته ، فإن الثورة ناجزه . ولكن حتى على افتراض أن الدم سوف يسفَك ، إلبس ثمة نوع من سفك الدم عندما يجرح الضمير ؟ عبر هذا الجرح تنزف رجولةُ المرء وخلوده ، وينزف حتى الموت الأبدي . وإني لأرى هذا الدم ينزف الآن . " (٤٦)

هكذا حال المواطنين في هكذا دولة فاسدة فإن المواطن الصالح الذي يقاوم هذه الحكومة الظالمة هو من يصر على الحق الأنقى مقابل المواطن الطالح الذي يسعي وراء المال ليكون الثروات ، ذلك المواطن الذي يتحالف مع هذه الحكومة الظالمة لكي تؤمن له ثرواته وتساعده على زيادتها . وهذا المواطن ينصحه " ثورو " أن يعود إلى الفضيلة مرة أخرى .

المبحث الثاني : أنا حر إذا أنا موجود :

إن الإنسان ولد حرا ، فجوهر حياته هو الحرية ، ولا يمكن أن تسلب حريته من قبل أي حكومة على الإطلاق ، وأي حكومة تحاول أن تسلبه حريته الفردية عليه أن يتصدي لها ويقاومها . ولكن " ثورو " يؤشر على أن بعض المواطنين

لديهم نزعة للتخلي عن حريتهم للحكومة أي يميلون لمنح ولائهم للحكومة مقابل أن تحميهم الحكومة .

المطلب الأول : استعداد المواطن للتخلي عن حريته للدولة مقابل حماية الدولة له .

تقوم المدنية الغربية على مبادئ عدة منها : حقوق الإنسان ، الحرية ، والعدل، والمساواة ، القانون ،،،الخ . وبالنسبة للحرية والقانون فهما من المقومات الرئيسة التي تقوم عليها هذه المدنية ، ويري بعض الباحثين والدارسين أن الحرية تتعارض مع القانون وفي المقابل يري آخرون أنهما متكاملان لا انفصام بينهما . الحرية والقانون مبدآن يقومان جوهر المدنية الغربية ، ويصوران الفرق بينها وبين غيرها من المدنيات التي سبقتها ، والتي ظهرت ، في بعض الأطوار ، كأنها تفوقها . فالحرية الفردية مصانة في إطار القانون الذي وافق عليه العقل الجمعي وعكس ذلك يعني الفوضوية : Anarchism وأن المجتمع يتحول إلى غابة . فمبدأ الاعتقاد في القانون " بوصف أنه شيء ينبغي أن يطاع ، لا لأنه يمثل الإرادة المطلقة الصادرة عن سيد ، بشري أو قدسي ، له أن يعاقب على الإخلال به ، بل لأنه يمثل ، بمعايير حقيقية ، الإرادة المنظمة والوعي الصادرين عن الجمعية ، ولأن الطاعة هي في غايتها لمصلحة الجمعية ومصلحة الفرد معا . والقانون إذا تقررت سلطته على هذا الوضع في جمعية ما ، ترتب على ذلك نتائج ، مهما اعتورها من الغموض والنقص ، فإن من المستطاع إدراكها عند التطبيق ، في محيط كل جماعة من الجماعات ذوات الطابع الغربي . وتلك نتائج قلما طبقت ، أو هي لم تطبق بتة ، على مدار علمنا بما بين أيدينا من المدونات ، في المدنيات غير الأوربية التي قامت من فوق هذا السيار . أولي هذه النتائج هي أن القانون ، بما أنه ليس إرادة الأقوى ، بل محاولة ترمي إلى الاقتراب ما أمكن من تطبيق العدل المجرد ، فهو إذن ليس بذلك الشيء الجامد الصلب الذي لا يتغير ، بل هو شيء قابل للنماء والتغير ، وإنه ينبغي أن يظل ناميا متغيرا ، حتى يصل إلى الغاية التي يأتلف فيها مع أرقي ما يتطلع إليه البشر من شريعة الآداب والفضائل . " (٤٧)

يعني ذلك أنه يجب على كل مواطن أن يطيع قوانين الدولة التي توفر له الحماية على نفسه وأهله وممتلكاته . لكن " ثورو " يرى عكس ذلك تماما ، يري أن طاعة القانون تمثل عائقا أمام الحرية الفردية ، وهذا يعني أن " ثورو" لا ينادي بالحرية الفردية في إطار احترام حرية الآخرين ، بل ينادي بحرية فردية متطرفة قوامها إذا كانت الدولة تحميني فلا يعني ذلك أنني سأتنازل لها عن حريتي. يقول : " كلما تحادثت مع أكثر جيراني تحرراً ، أدركت أنه أيا كان ما قد يقولون في سعة المسألة وجديتها ، ومهما كان مبلغ اعتبارهم للأمان العام ، فإن

لب المسألة هو أنهم لا يستطيعون أن يستغنوا عن حماية الحكومة الحالية ، وهم يخشون عواقب عصيانها على أملاكهم وعائلاتهم . من جانبي لا أحبذ فكرة الاتكال أصلاً على حماية الدولة . لكني إذا تنكَّرت لسلطة الولاية عندما تقدم لي كشفها الضريبي فإنها سرعان ما سوف تستولي على أملاكي كلها وتبددها ، وبذلك تتحرش بي وبأولادي بغير حد ، وهذا يشق على . إن هذا يجعل من المتعذر على المرء أن يحيا حياة شريفة ، وفي الوقت نفسه مريحة ، من حيث الأمور الخارجية ولن يكون من المجدي كنز الأملاك ، إذ لا بد للأمر من أن يتكرر . وينبغي عليك أن تستأجر أو تستحل مكانا ، ولا تزرع إلا محصولا قليلا تأكله سريعا . وينبغي عليك أن تحيا في دخيلة نفسك ، وتتكل على نفسك دوما ، مشمرا عن ساعديك ، مستعداً للانطلاق ، ولا تملك الكثير من الأغراض . " (٤٨)

يرفض " ثورو " الانصياع للدولة و يأبي أن يعيش في ظل حمايتها ويفضل عصيانها على ذلك . فيقول : " أقول لا : فإلى أن أحتاج أن تشملني حماية ماساتشوستس وأنا في ثغر جنوبي بعيد ، حيث تتعرض حريتي للخطر ، أو إلى أن أصمم فقط على تعمير ضيعة لي في موطني بالمساعي السلمية ، يجوز لي أن أرفض البيعة لماساتشوستس ولحقِّها على ملكي وحياتي . وإنه ليكلِّفني أقل من كل الوجوه أن ينزل بي عقاب عصيان الدولة من أن أنصاع . الأحرى بي عند ذاك أن أشعر وكأن قيمتي تضاءلت " (٤٩) إن عصيان قوانين الدولة أفضل من التنازل عن حريتي الفردية مهما كلفني ذلك من عقاب من قبل قوانين الدولة .

لقد انقسمت الآراء حول قضية كون الإنسان ولد خيرا أم شريرا ؟ . مما استتبعه الاختلاف حول قضية أخري : هل الإنسان يحتاج للقانون أم لا ؟ .

ففي الصين القديمة ، نجد في القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة مشهورة اسمها " المشرع " كانت تؤمن بأن الإنسان في الأصل ذو طبيعة شريرة ... وأن الطريق الخيرة التي يتصرف بها الإنسان ، سببها في الغالب تأثير البيئة الاجتماعية ، خاصة أعم الطقوس الدينية وضوابط قوانين العقوبات ، ومن بين المبادئ المقررة التي تؤمن بها المبدأ القائل " إن قانونا واحدا مقترنا بعقوبات شديدة لضمان تنفيذه، أفضل من كل كلمات الحكماء لحفظ النظام " . وفي الحقبة ذاتها أكد كتاب " الشاسترا " shastra في الهند أن الإنسان بطبعه عاطفي وجشع ، وأنه إذا ما ترك له العنان فإن العالم سيتحول إلى " ورشة للشيطان " يسود فيها " منطق السمك "، أي أن الكبير يأكل الصغير . ونجد نظيرا لهذه الآراء في مؤلفات عدد من كتاب أوروبا الغربية الحديثة . " ثم يسرد المؤلف آراء أعلام الفكر الغربي من هذه المسألة أمثال : " بودان " : Jean Bodin (١٥٣٠ – ١٥٩٦م) ، و " هوبز " :

Thomas Hobbes (١٨٥٥ – ١٦٩٧م) ، و " هيوم " : David Hume (١٧١١ – ١٧٧٦م) ، فكلهم يؤكدون على أن الإنسان ولد فوضويا وعنيفا وفظا وبدون حكومة وقانون لن يردعه رادع (٥٠) .

إن قيام قوانين تنظم حياة المجتمع قضية لا تقبل المجادلة فإن " الاعتراف بأن نظاما يشتمل على قواعد وقوانين حتى في أبسط أشكال المجتمع يبدو أمرا لا مفر منه . ففي أي مجتمع ، بدائيا كان أو متطورا ، من الضروري وجود قواعد وقوانين تحدد الشروط التي يستطيع الرجال والنساء أن يتزوجوا ويتعايشوا في ظلها . هناك قوانين تحكم علاقات العائلة ، وقوانين تحكم النشاطات الاقتصادية ، وجمع الطعام ، أو الصيد ، وقوانين تحرم الأفعال التي تضر بمصلحة العائلة أو القبيلة أو الجماعة بأسرها . " (٥١) إن مجتمعا يقوم على أن كل فرد يفعل ما يراه حقا فكرة سفسطائية انتهازية وبغيضة ، فكرة تحول المجتمع لغابة يستولي فيها الأقوى على مقدرات الضعيف مما سيتتبعه انهيار كامل للمجتمع .

المطلب الثاني : حريتي أهم من الخضوع لأوامر الدولة .

يري " ثورو " أن جوهر حياة الإنسان هي الحرية ، الحرية حتى لو كانت تخالف قوانين الدولة التي اتفق المواطنون على أن تكون حاكمة لحياتهم . ولذلك عندما أتاه جابي الضرائب رفض أن يدفع الضريبة للدولة ، فعوقب بالسجن وقضي في السجن ليلة واحدة لأن مواطن ما دفع عنه هذه الضريبة . وأثناء ذلك المشهد من بداية رفض دفع الضريبة إلى الخروج من السجن والعودة لممارسة حياته اليومية . يروي لنا ما حدث بقوله : " منذ بضع سنوات استدعتني الدولة لمصلحة الكنيسة وأمرتني بدفع مبلغ معين مقابل إعالة رجل دين كان أبي مواظبا على حضور مواعظه ، ولم أكن قط . قالت لي : " ادفع ، أو دونك الحبس في السجن . " فرفضت أن أدفع . لكن ، لسوء الحظ، وجد رجل آخر أن من اللائق أن يدفعه . ما كنت لأفهم لماذا ينبغي على ناظر المدرسة أن يؤدي الضريبة لإعالة الكاهن ، وليس العكس ؛ ذلك أني لم أكن ناظر مدرسة الدولة ، بل كنت أقوم بأودي من الهبات الطوعية . ما كنت لأفهم لماذا لا تقوم المدرسة الثانوية بتقديم كشفها الضريبي وتكلف الدولة بدعم طلبها ، وكذلك الكنيسة . غير أني نزولا عند طلب اللجنة الناظرة في القضية ، تنازلت وصرحت كتابة بما مفاده : "أنا ، هنري ثورو، أعلن على رؤوس الأشهاد أنني لا أود أن أُعتبر عضوا في أية هيئة اجتماعية لم أنتسب إليها . " وهذا التصريح سلَّمتُه إلى كاتب البلدة ، وهو في حوزته . عندئذ فإن الدولة ، إذ تنامي إليها أنني لم أكن أود اعتباري عضوا في تلك الكنيسة ، كفَّت منذئذ عن مطالبتي بشيء مثل هذا – وإن تكن قالت إنه ينبغي عليها

أن تتقيد بإجرائها الأصلي في تلك المرة . ولو كنت أستطيع أن أحصي كافة الجمعيات التي لم أنتسب إليها قط لاستقلت منها جميعا على التفصيل ؛ لكني لم أعرف أين كنت أستطيع أن أجد قائمة مستوفية بها . " (٥٢)

خرج " ثورو " من هذه التجربة ليكتشف أن السجن كان عبارة عن جدار يحول بينه وبين أهل القرية التي يقطن فيها . وظهر له أيضا أنه يوجد جدار أكثر منعة وارتفاعا بينه وبين سكان القرية ، جدار من المستحيل تسلقه للوصول إلى الحرية التي يصبو إليها . لم يشعر للحظة أنه في سجن ، ورأي جدران السجن بنيت هباء منثورا بأموال المواطنين . كانت الليلة في السجن جديدة وممتعة إلى حد كبير . وكل ما استطاعوا أن يفعلوه به هو معاقبة جسمه لأن الدولة لا يمكنها مواجهة عقلي وأخلاقي ومبادئي . فالدولة تفتقد الحكمة والصدق وتتمتع فحسب بالقوة الجسمانية . نعم لن يستطيع أحد ما أن يكرهني على فعل شيئا ما ، فأنا الأقوى ، وسأعيش على نحو ما أريد . إذا لم تستطع نبتة أن تحيا بحسب طبيعتها فإنها تموت – وكذلك الإنسان . واستفاد من هذه التجربة أن الدولة " معتوهة " ، وأنها لا تستطيع التمييز بين أصدقائها وأعدائها . ومن المثير للانتباه في قضية القبض على " ثورو" وإيداعه السجن وخروجه أنه عندما أغلق عليه باب السجن قال : " ... لم أملك إلا أن أبتسم لرؤية مبلغ اجتهادهم في إغلاق الباب على تأملاتي ... " (٥٣)

هذا الموقف الذي يبديه " ثورو " من سجانيه حيث يقابل ظلمهم وحبسهم له بابتسامة ، هذا الموقف من المرجح أن الأستاذ سيد قطب (١٩٠٦ – ١٩٦٦ م) يرحمه الله قد خبره في أمريكا أثناء فترة إقامته بها ١٩٤٨ – ١٩٥٠ م . بل لعله أطلع على مؤلفات " ثورو " وأشباهه من المفكرين والأدباء الأمريكيين . وموقف " ثورو " من سجانيه يتشابه إلى حد كبير مع العبارة الإخوانية " حين إلقاء القبض عليك.. ابتسم حتى يفقد الضابط لذة الانتصار" . هذه العبارة التي أرجعها أحد رجالات الأمن – وهذا يبدو في كثير من المواقع الإلكترونية للمجلات والصحف المصرية – إلى الأستاذ حسن البنا (١٩٠٦ – ١٩٤٩ م) يرحمه الله . ولذلك – طبقا لتفسير الضابط الأمني – تجد كل قيادات الإخوان عند القبض عليهم خاصة في الآونة الأخيرة يبتسمون طبقا لتعليمات الأستاذ حسن البنا يرحمه الله . ولقد قام الباحث بمراجعة مؤلفات الأستاذين حسن البنا وسيد قطب يرحمهما الله ، ومراجعة موقع " ويكي إخوان " ، والمواقع الإلكترونية الأخرى ذات الصلة ، وطالع كذلك كثيرا من المؤلفات التي كتبت عنهم خاصة " كتاب أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب " : تأليف : صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار المنارة ، وهو كتاب إلكتروني

يقع في ١١٢ صفحة .. لعل الباحث يجد أثرا لهذه المقولة في أحد هذه الكتب أو المواقع إلا أن الباحث لم يجد – على قدر طاقته – أثرا لها في كل هذه المؤلفات . ولقد تناول الكتاب والمفكرون والصحفيون – على نحو ما يرد في المواقع الإلكترونية - قضية صحة نسبة هذه المقولة لأحد الأستاذين يرحمهما الله ، فيوجد من ينسبها لأحدهما دون الآخر . و يرجح الباحث أن صاحب هذه المقولة هو الأستاذ سيد قطب يرحمه الله وليس الأستاذ حسن البنا يرحمه الله لأن الأول سافر إلى أمريكا وخبر مظاهر الحياة الروحية والمادية الأمريكية ، وكتب أيضا عنها كثيرا من المقالات وأورد كذلك كثيرا من المعلومات عنها في ثنايا مؤلفاته المختلفة (٥٤) .

وبالجملة فقد واجه " ثورو " ظلم حكومته المعتوهة – على نحو ما صرح بذلك – بابتسامة ساخرة من هذا الفعل الصبياني . وكأن لسان حاله يقول لسجانه : أنت لن تنال من عزيمتي ، أنت لن تكسر إرادتي في المطالبة بحريتي ، أنت لم ولن تنتصر على ، بل أنا الذي انتصرت ، وسأنتصر عليك .

ويعلن " ثورو " أن هدفه ليس مقاومة الحكومة على طريقته اللاعنفية بل إنه يريد – ببساطة – أن يحل نفسه فحسب من بيعة هذه الحكومة . يقول : " لم أرفض قط دفع ضريبة الطريق العام ، لأني لا أقل رغبة أن أكون جارا طيبا من أن أكون من الرعايا السيئين ؛ أما عن دعم المدارس فإني أؤدي دوري لتربية أبناء وطني الآن. ولست أرفض دفع الكشف الضريبي بسبب بند معين وارد فيه . أود ببساطة رفض البيعة للولاية ، وذلك للانسحاب والوقوف منحازا عنها بالفعل . لا أبالى باقتفاء مسار دولاري ، لو استطعت ، اللهم إلا عندما يشتري رجلا بارودة يقتل بها رجلا – والدولار بريء – لكني حريص على اقتفاء آثار بيعتي . والواقع أنني أعلن الحرب بهدوء على الولاية ، على طريقتي ، على الرغم من أني سأدأب على استعمالها والاستفادة من أية ميزة لها ، كما جرت العادة في مثل هذه الحالات . " (٥٥) يصرح هنا " ثورو " بأنه رغم أنه سيواجه هذه الحكومة الظالمة بطريقته الخاصة إلا أنه ستعامل معها ويحاول أن يستفيد منها ، وهذا تناقض سفسطائي صارخ وواضح فهو يثبت الشيء ونقيضه في آن واحد (٥٦) .

ويناقش " ثورو " مسألة من يدفع له الضريبة الظالمة التي تفرضها الدولة على كل مواطنيها بما فيهم " ثورو " نفسه ، فيرى " ثورو " أن من يدفع له تلك الضريبة الظالمة إذا كان يفعل ذلك تعاطفا مع الدولة فهذا سيحض الدولة على ممارسة مزيد من الظلم . أما إذا كان دافع هذه الضريبة الظالمة بهدف الحرص على ممتلكات " ثورو " وللحيلولة دون سجنه . فذلك الموقف يعود إلى أن من

دفع الضريبة الظالمة لي لم يفعل ذلك من منطلق عقلى وحكمة كبيرة بل فعل ذلك بدافع مشاعر وانفعالات وعواطف لا تصب في الأخير في خير الجماهير عامة . ودفع الضريبة للآخرين مسألة مرفوضة من قبل " ثورو " بل أنه ينصح من يفعل ذلك أن يلتزم بفعل ما يخصه هو شخصيا فحسب في كل وقت وحين .

ومن الإجراءات السلمية التي يطالب " ثورو " بفعلها أيضا : الامتناع عن التعامل مع هيئة البريد ووكالة الأخبار . يقول : " أما من جهتي فليس أيسر على من أن أستغني عن مصلحة البريد برمتها . ففي رأيي أن قليلا جدا من الأخبار الهامة يصلنا على يديها . والحق أني لم أتسلم في حياتي سوى خطاب واحد أو خطابين – كتبت هذا من بضع سنين مضت – كانا جديرين بما عليهما من ثمن طوابع البريد . فنظام البريد الذي جعل قيمة إرسال الخطاب بنسا واحدا – هو في العادة نظام يجعلك تقدم هذا البنس ، جادا غير مازح ، ثمنا لأفكار رجل واحد ، وهو البنس الذي يقدم عادة ، وفي أمان من قبيل المزاح والفكاهة . وإني لواثق كل الوثوق أني لم اقرأ أي خبر ذي بال في جريدة ما ، فإن قرأنا أن رجلا سلب أو قتل أو مات عرضا في حادثة ـ أو عن بيت احترق أو سفينة تحطمت أو باخرة انفجرت ، أو بقرة دهسها القطار على سكة وستون الحديدية أو أن كلبا مسعورا قتل ن أو جماعات من الجنادب ظهرت في الشتاء – إذا قرأنا خبرا واحدا من هذه الأخبار لم نعد بحاجة إلى أن نقرأ آخر ، فحسبنا مثل واحد منها . فمادمت قد عرفت المبدأ أو القاعدة فما حاجتك إلى ألف مثال ومثال لها ؟ أو إلى ألف تطبيق وتطبيق عليها فالأخبار ، في رأي أحد الفلاسفة كلها هذر ، وهراء في هراء وأن الذين يذيعونها ويقرؤنها ليسوا سوي نسوة عجائز يتشدقنها ، وهن يتناولن الشاي . مع ذلك فكثيرون هم الذين يحرصون كل الحرص فيما بينهم على سماع أمثال هذه الأخبار والأحاديث الجوفاء (٥٧) .

ويطالب " ثورو " غيره من المواطنين أن لا يفعلوا ذلك وكذلك يصرح بأنه لن يفعل ذلك ، إن " ثورو " يطالب الآخرين بأن لا يعرضوا أنفسهم لقوة بهيمية وحشية . هذه القوة التي يراها محض قوة بشرية جزئيا . كذلك عندما ألقي برأسي في النار عامدا فأنا لا ألوم إلا نفسي ، وأنا أتصرف على نحو ما أري وفي المقابل أحتفظ لغيري بأن يفعلوا ما يشئون على نحو ما يرون . " إذ ذاك فإني ، كالمسلم الطيب a good Mussulman والجبري الطيب ، لا بدّ أن أسعى إلى الرضي بالأشياء على حالها ، وأقول بأنها إرادة الإله and say it is the will God. وفوق ذلك كله ، هناك هذا الفارق بين مقاومة هذا ومقاومة قوة محض عجماء أو طبيعية ، المتمثل في أنني أستطيع أن أقاومه بشيء من الفعالية ؛ إنما لا يمكنني أن

أتوقع، مثل أورفيوس ، تغيير طبيعة الصخور والأشجار والبهائم . " (٥٨،٥٩) يرفض " ثورو " موقف الإنسان المسلم ومن يؤمن بأن الإنسان مسير وليس مخيرا ، ولذلك هو يرى أن الحكومة ليست حتمية ضرورية بل ممكن تغيرها بالعصيان المدني . ويخالف " ثورو " أورفيوس : Orpheus الذي يتصور أن كل شيء يتغير مثلما تغير موسيقاه كل ما حوله . ولكن " ثورو " يرى أن من حقه أن يواجه هذه الحكومة الظالمة ويقاومها فهي ليست قدرا محتوما بل هي غير ذلك تماما حيث أن مقاومتها من الممكن أن تؤدي إلى صلاح أحوال الجماهير .

بالنسبة لزعم " ثورو " أن الإنسان المسلم يذعن للحكومة الظالمة ولا يحرك ساكنا تجاه قوانينها الجائرة . هذا ليس له نصيب من الحقيقة ، فالإسلام يجيز خروج المسلم في مظاهرات : Demonstrations أو احتجاجات : Protests أو اعتصامات : Ins ولكن ذلك يكون وفقا لضوابط شرعية مستخرجة من القرآن الكريم والسنة الشريفة (٦٠) .

لا يريد " ثورو " أن يناهض الحكومة ويعصيها من أجل المقاومة والعصيان في ذاتهما ، بل على العكس هو لا يريد ذلك ، فهو يبحث عن حجة أية حجة يلتمس بها العذر للحكومة . يقول : " لا أود أن أتخاصم مع أي رجل أو أمة . لا أود أن أماحك في الكلام ، أن أقيم تمييزات دقيقة ، أو أضع نفسي في منزلة أحسن من منزلة جيراني . أفتش بالحري ، إذا جاز لي القول ، عن عذر حتى للانصياع لقوانين البلاد . لا بل إني أكثر من متأهب للانصياع لها . أجل ، عندي ما يبرر لي الشك في نفسي في هذا الصدد ؛ وكل عام ، عندما يزورني جابي الضرائب ، أجدني مستعداً لاستعراض أعمال ومواقف الحكومتين ، الحكومة العامة وحكومة الولاية ، وروح الناس ، حتى أكتشف عذرا للامتثال . " (٦١)

ولما لم يجد " ثورو " حجة واحدة تقنعه بالولاء لهذه الحكومة فهو يرى أنه من الضروري عليه أن يعصيها ويقاوم قوانينها الظالمة . يقول : " غير أن الحكومة لا تهمني كثيرا ، ولسوف أخصص لها أقل ما يمكن من الخواطر . فاللحظات التي أحيا فيها تحت لواء حكومة ليست كثيرة ، حتى في هذا العالم . فإذا كان المرء حر الفكر ، حر المخيلة، حر التصور، أي ما لا يبدو أنه ملك له طويلا قط ، فإن الحكام أو المصلحين غير الحكماء لا يستطيعون حتما أن يمنعوه . " (٦٢) هؤلاء الذين يمسكون بزمام هذه الحكومة ليسوا حكماء على نحو ما تخيل أفلاطون في مدينته الفاضلة ولذلك يري " ثورو " أن حريته الفردية أهم وأغلى وأجدر بأن يحافظ عليها أمام حكومة جائرة تحارب الحرية الفردية لكل مواطن من مواطني الدولة .

يرى " ثورو " أن رجال الدولة منصهرون في الدولة ، إنهم يبحثون عن مصالح الدولة التي تصب في مصالحهم الفردية ، فرجل القانون يقف دائما مع الحكومة لا يتخلى عنها ، والمحامي تكمن حقيقته ليس في الحقيقة ذاتها بل في التماسك والذريعة المتماسكة ، وكذلك المدافع عن الدستور يفكر دائما في التأييد الذي يقدمه الدستور للرق . إن تشريع القوانين يحتاج لعباقرة في التشريع لكنهم – مع الأسف – نادرون في مقابل البلغاء والخطباء السياسيين فهم كثر ، وهذا الصنف الأخير لا ينشغل بالبحث عن حلول ناجعة لما تمر به أمريكا من مشكلات. وإذا كان الوضع كذلك فأين هو مشرع القوانين الذي يسترشد ويمتلك الحكمة والموهبة العملية اللازمين لكي ينتفع بالنور الذي يلقيه على العلم أو على التشريع؟! .

المطلب الثالث : الفرد أساس الدولة :

يرى " ثور " إن المواطن إذا كان اتفق مع غيره من المواطنين في تدشين الدولة ، فمن حقه أيضا أن ينسلخ من هذه الدولة طالما أنها لا تلتزم العدل . لكل مواطن سلطة فردية خاصة به . لذلك فلا يجب أن تتدخل الدولة في حياة الأفراد كما تشاء (٦٣) . ولذلك من الضروري أن يوافق المواطنون على أن تدير هذه الحكومة شئونهم . يقول : " إن سلطة الحكومة ، حتى إذا كانت من النوع الذي أنا مستعد للخضوع له – إذ إنني سوف أطيع مبتهجا أولئك الذين يعلَمون ويمكنوا أن يعملوا أحسن مني ، وفي أشياء كثيرة حتى الذين ليسوا يعلَمون وليس بمقدورهم أن يعملوا خيرا مما أعمل – مازالت سلطةً غير طاهرة : فحتى تكون عادلة بالدقة، يجب أن تحوز على إذْن المحكومين وموافقتهم . " (٦٤)

من هذا المنطلق يرى " ثورو " أن الحكومة ليس من حقها أن تستولي على أدني شيء من ممتلكاتي إلا إذا تنازلت أنا لها عن ذلك بمحض إرادتي . إن " ثورو " دعا إلى الثورة على الحكومة ليس من منطلق شخصي بل من أجل المجموع العام الذي تصب عليه الحكومة ظلمها الفادح . فـ " ثورو " في ثورته " لم يكن صادرا عن أذى لحق بشخصه أو ظلم أحاق بصالح من صوالحه ، إنما كانت ثورته لما لحق غيره من صنوف الإجحاف ، كانت ثورته في سبيل غيره ، كالزنوج العبيد وكالهنود سكان البلاد الأصليين ، وإذن فالأذى قد أحسه في لذع ضميره ، كأنما هو لا يقصر واجب مقاومة الفرد لحكومته على الأمور التي تمس مصالح ذلك الفرد مسا مباشرا ، بل يوسع من مداه . " (٦٥)

وينتهي " ثورو " إلى أنه من الضروري التحول إلى الملكية الخاصة وتقدير الفرد ، ويجب أن تعترف الدولة بسلطة الفرد كسلطة أعلى من سلطة الدولة ،

ويتمني أن تكون الدولة كذلك . يقول : " إن التقدم من الملَكية المطلقة إلى الملَكية المحدودة ، ومن هذه إلى الديمقراطية ، هو تقدم نحو احترام حقيقي للفرد . وحتى الفيلسوف الصيني كان من الحكمة بحيث اعتبر الفرد أساس الإمبراطورية (٦٦) . فهل الديمقراطية ، التي نعرفها ، آخر تحسين ممكن في الحكم ؟ أليس من الممكن أن نخطو خطوة إلى الأمام نحو الاعتراف بحقوق الإنسان ونحو تنظيمها ؟ لن تكون ثمة دولة حرة ومتنورة حتى تؤول الدولةُ إلى الاعتراف بالفرد كسلطان أعلى مستقل ، تستمد منه قدرتها وسلطانها ، فتعاملَه على هذا الأساس . يلذ لي أن أتخيل دولةً على الأقل تطيق أن تكون عادلة مع البشر قاطبة ، وتعامل الفرد باحترام كأنه جار ؛ دولة لا تجد حتى أنه من لا يتناقض مع راحة بالها أن يتفق لثلة منهم أن يحيوا بمنأى عنها ، لا يخالطونها ، ولا تضمهم ، وقد قاموا بواجباتهم كجيران وكرفاق بشر على التمام . إن دولةً جادت بمثل هذه الثمرة ، وتمنت عليها أن تسقط حال نضجها ، من شأنها أن تعبد الطريق لدولة أكمل منها وأمجد – دول تخيلتها هي الأخرى ، لكني لم أرها بعد في أي مكان . " (٦٧) ويؤكد " ثورو " على أن إرادة الفرد تعلو فوق إرادة الدولة في روايته والدن . يقول : " ... وأعقل من ذلك ، الرجل الذي كثيرا ما يجد نفسه في مواقف " معارضة شكلية " للأمور التي يقال عنها : إنها أقدس واجبات المجتمع ، وذلك عن طريق الطاعة لقوانين أقدس من هذه . وبذلك يكون قد اختبر مدي تصميمه ومضاء عزيمته من دون أن يضطر إلى أن يحيد عن الطريق الذي رسمه لحياته ؛ ليس للإنسان أن يقف مثل هذا الموقف إزاء المجتمع وإنما عليه أن يحافظ على نفسه ويستبقيها عالية في أي موقف يجد فيه من جراء خضوعه لقوانين كيانه ووجوده هو ، وهو موقف لا يتعارض مع أية حكومة رشيدة عادلة ، إذا ما حدث وصادف حكومة من هذا القبيل . " (٦٨)

لقد كتب " ثورو " مقالته عن العصيان المدني عندما وجد الدولة تنحرف عن طريق العدل والحق والمساواة بسبب الحرب غير الشرعية وغير الأخلاقية التي شنتها على دولة المكسيك الجارة والضعيفة ، وكذلك بسبب موقف الحكومة المخزي في تعاطيها مع قضية العبيد وفي معاملتها للهنود الحمر سكان البلاد الأصليين .

ويؤكد " ثورو " على أن دولة يعيش فيها المواطنون على نحو بسيط يعني أن لا يؤذي مواطن مواطن آخر ، ولذلك طالب الحكومة أن تكف عن عقاب المواطنين من خلال ما تسن من قوانين ظالمة . يقول : " وفي يقيني أن الناس لو عاشوا جميعا عيشة بسيطة مثل تلك التي كنت أعيشها وقتئذ – يقصد في غابة

والدن - ، لاختفت السرقة وزال النهب . فهما لا يحدثان إلا في المجتمعات التي يكون فيها عند بعض الناس أكثر ما يكفيهم ، وعند البعض الآخر ما لا يكفيهم ... فأنتم يا من في أيديكم تصريف الشئون العامة ، ما حاجتكم إلى الالتجاء إلى العقاب ؟ أحبوا الفضيلة يصبح الناس فضلاء ، ففضائل الرجل العظيم كالريح ، وفضائل الرجل العادي كالعشب ، والعشب ينحني ويميل إذا ما هبت عليهم الريح . " (٦٩)

يبدو واضحا من كل ما سبق أنه علي الرغم من اعتراضنا علي كثير من أفكاره وآراء " ثورو " إلا أنه يعد من المؤسسيين للمقاومة اللاعنفية في وقتنا الحاضر ،. فقد تأثير بفكره اللاعنفي من نظروا ومارسوا المقاومة اللاعنفية من بعده . وفي مقدمة هؤلاء الفيلسوف الأمريكي " شارب " الذي استفاض في التنظير لفلسفة المقاومة اللاعنفية من خلال مؤلفاته المنتشرة علي " الشبكة العنكبوتية " ومن خلال مركزه المسمي بـ " مركز ألبرت أينشتاين " . ويعد نفر كبير من الباحثين والدراسيين ، بل والممارسين للمقاومة اللاعنفية " شارب " الأب الروحي للمظاهرات والاعتصامات والعصيان المدني بكل صوره ليس في العالم العربي فحسب بل في كثير من أرجاء المعمورة .

تعقيب

١ – ينتمي " ثورو " إلي نظرية الفلسفة المتعالية ، التي طبقها أيضا علي الأرض واهتم كذلك كثيرا بقضية فردانية الإنسان . وتعد مقالته عن " العصيان المدني " تعبيرا صادقا عن ما يزعمه من فردانية شخصية . فهذه المقالة تظهر لنا مدي إخلاصه لفرديته الشخصية ، وتبين أيضا مقاومته اللاعنفية لقوانين الدولة الأمريكية الظالمة . ولقد استفاد من مقاومته اللاعنفية كثيرون داخل أمريكا وخارجها .

٢ – يري " ثورو " أن الوظيفة المثلي للحكومة أن لا تحكم مطلقا ، فهذه الحكومة الأمريكية حكومة مصلحة ومنفعة ، تلك الحكومة التي ورطت الشعب الأمريكي في الحرب المكسيكية دون أن يكون له ناقة ولا جمل في هذه الحرب ، فهذه الحكومة تهدف إلي تحقيق مصالح قلة من الأغنياء فحسب ولا تعبأ بالأكثرية الكبيرة من الشعب الأمريكي ، ولذلك هذه الحكومة ينبغي أن ترحل ويحيل محلها حكومة تخدم جماهير الشعب الأمريكي .

٣ – علي الرغم من العيوب التي تكتنف حكومة الأغلبية إلا أن " ثورو " يقبل بها وإذا كان القانون قوة ضبط خارجية مقابل الضمير قوة ضبط داخلية إلا أن " ثورو

" يري أن الضمير يجب أن يحكم وليس القانون . ويري أيضا أنه من حقه أن يفعل ما يري أنه حقا .

٤ – يرفض " ثورو " الولاء للحكومة ، تلك الحكومة المتوحشة التي تسعي لتحقيق مصالح قلة من الأغبياء علي حساب مصالح الجماهير . هذه الحكومة الظالمة غير الديمقراطية ، التي تستعبد الجماهير ولا تساوي بينهم ولا تراعي حقوق الإنسان وغيرها من المصائب التي تتسبب فيها للجماهير ينبغي الثورة عليها .

٥ – على الرغم من أن التصويت في الانتخابات مظهر من مظاهر الديمقراطية عند " ثورو " إلا أنه لا يصل في النهاية إلي حكومة تعمل من أجل الجماهير .

٦ – الثورة على الحكومة تكون من خلال المقاومة اللاعنفية وليس المقاومة العنفية ، فالتمرد علي الدولة يكون من خلال عدم التعاون معها . عدم التعاون مع الدولة يكون بعدم دفع الضرائب ، ومبادرة فردية بعتق العبيد ، والاستقالة من الوظيفة الحكومية ، والامتناع عن التعامل مع كافة مؤسسات الدولة ،،، الخ .

٧ – جوهر حياة الإنسان هو حريته الشخصية ، ومن الضروري أن يدافع كل مواطن عن حريته الشخصية أمام قوانين الحكومة الظالمة . إن " ثورو " يرفض أن يتنازل عن حريته للدولة مقابل أن توفر له الحماية الشخصية . ويفضل أيضا حريته الشخصية علي الانصياع لقوانين ولوائح الدولة الظالمة . وعندما مارس تمرده اللاعنفي علي قوانين الدولة من خلال عدم دفع الضرائب المستحقة عليه حبسته الدولة .

٨ – حاول " ثورو " أن يبحث عن حجة للدولة أي حجة لكي يلتمس لها أى عذر إلا أنه لم يجد ، لذلك قرر أن يعصاها ويتمرد عليها . ولما كان الفرد أو المواطن هو حجر الزاوية في الدولة برمتها يري " ثورو " أن الدولة يجب أن تعترف بسلطة أعلي من سلطتها وهي سلطة الفرد .

ملحق (العصيان المدني)

هنري د. ثورو

ترجمة: ديمتري أفييرينوس وموسى الحوشي

ما فتئتُ أقبَلُ عن حماسة مبدأ: "خيرُ الحكومة ما حَكَمَ أقلّ"؛ ووددت لو أني رأيته معمولاً به على نحوٍ أسرع وأكثر منهجية. فبإنفاذه يؤول أخيراً إلى المقولة التالية التي أومن بها هيَ الأخرى: "خير الحكومة ما لا يحكم إطلاقاً." وعندما يكون البشر مستعدين له فذلك نوع الحكومة الذي سيحصلون عليه. ليست الحكومة، في أحسن الأحوال، غير وسيلة يُتذرَّع بها إلى حين تيسيراً للمصلحة؛

لكن معظم الحكومات عادة، وكل الحكومات أحياناً، لا ييسِّر المصلحة. والاعتراضات المقدَّمة ضد جيش قائم – وهي عديدة وذات وزن وتستحق أن تعمَّم – قد تُقدَّم أيضاً في المآل ضد حكومة قائمة. فالجيش القائم ما هو إلا ذراع للحكومة القائمة. والحكومة نفسها، التي هي الكيفية الوحيدة التي اختارها الناس لإعمال إرادتهم، معرَّضة بالمقدار نفسه للشطط في الاستعمال وللشذوذ قبل أن يستطيع الناس العمل من خلالها. دونكم مثلاً الحرب المكسيكية الحالية، بما هي فعلة بضعة أفراد يستخدمون الحكومة القائمة أداة لهم؛ إذ إن الناس، في المآل، ما كانوا ليوافقوا على هذا الإجراء.

هذه الحكومة الأمريكية، ما هي إنْ لم تكن تقليداً – وإنْ يكن حديثاً – يسعى إلى نقل نفسه غير منقوص إلى الأخلاف، لكنه يفقد كل لحظة شيئاً من كرامته؟ ليست لها حيويةُ رجل فرد حيٍّ ولا قوَّته؛ إذ إن بوسع رجل فرد أن يجعلها طوع بنانه. إنها، في نظر الجماهير نفسها، ضربٌ من السلاح الخشبي. لكن هذا لا ينتقص من ضرورتها؛ إذ إن على الجماهير أن تملك نوعاً ما من الآلة المعقدة، وتسمع ضوضاءها، من أجل أن تلبِّي فكرتها عن الحكم. وبذلك تبرهن الحكوماتُ إلى أيِّ حدٍّ بوسع البشر أن تُفرَض عليهم أمورٌ، بل حتى أن يفرضوها على أنفسهم، من أجل مصلحتهم. ويجب علينا جميعاً أن نقرَّ بأن هذا ممتاز. غير أن هذه الحكومة لم تدعم قط من تلقاء نفسها أية مبادرة إلا بمقدار ما لم تعرقل سيرها. إنها لا تهتم بصون حرية البلاد؛ لا يهمها أن تسوِّي أمور الغرب؛ لا يهمها أن تربِّي. فالطبع الذي فُطِرَ عليه الشعب الأمريكي هو الذي قام بكل ما تمَّ إنجازه؛ ولعله كان سيفعل المزيد نوعاً ما لو أن الحكومة لم تعرقل سيره في بعض الأحيان. ذلك أن الحكومة وسيلة يتذرَّع بها البشر طوعاً للنجاح في ترك واحدهم الآخر وشأنه. وكما قيل، عندما تكون الحكومةُ هذه الوسيلةَ على أتمِّ وجه فإن المحكومين يُترَكون وشأنهم على أتمِّ وجه كذلك. فلو لم تكن المقايضة والتجارة في مرونة المطاط لما أفلحتا في تخطِّي العقبات التي ما انفك المشرِّعون يضعونها في طريقهما. ولو كان لنا أن ندين هؤلاء الرجال كلياً بنتائج أفعالهم، وليس جزئياً بنواياهم، لاستحقوا أن يصنَّفوا مع أولئك الأشخاص الأشقياء الذين يضعون العوائق على الطرق السككية.

أما إذا شئتُ أن أتكلم عملياً وكمواطن، على غير ما يفعل أولئك الذين يلقبون أنفسهم بالفوضويين، فإني لا أطالب على الفور بزوال الحكومة، بل على الفور بحكومة أفضل. فليجهر كلُّ امرئ بنوع الحكومة الذي يستأهل احترامَه، فتكون هذه خطوة أولى باتجاه الحصول عليها.

إن السبب العملي، بعد كل اعتبار، إذا ما آل السلطان إلى أيدي الجماهير، في السماح للأكثرية بالحكم، وبالاستمرار فيه لفترة طويلة، ليس على الأغلب لأنها على صواب، ولا لأن هذا يبدو الأنصف في نظر الأقلية، بل لأنها الأقوى. لكن حكومة تحكم فيها الأكثرية في كل الحالات لا يمكن أن تتأسَّس على العدل، حتى في حدود فهم البشر له. ألا يمكن أن توجد حكومةٌ لا تقرر فيها الأغلبياتُ الحقَّ والباطلَ، بل يقررهما الضمير؟ – حكومةٌ تقرر فيها الأغلبياتُ تلك المسائل فقط التي تنطبق عليها قاعدةُ تيسير المصلحة؟ هل ينبغي أصلاً على المواطن للحظة، أو في الحدِّ الأدنى، أن ينزل عن ضميره للتشريع؟ علام لكلِّ إنسان ضمير إذن؟ أعتقد أننا يجب أن نكون بشراً أولاً، وبعدئذٍ رعايا. إذ ليس من المرغوب أن يُحرَص على احترام القانون بقدر ما يُحرَص على الحق. إن الفرض الوحيد الذي يحق لي أن أسأل عنه هو أن أفعل في أيِّ وقت ما أراه حقاً. لقد صدق إلى حدٍّ كبير من قال بأن الجَمْعَ لا ضمير له؛ لكن جَمْعاً من أصحاب الضمائر هو جَمْع ذو ضمير. لم يجعل القانونُ البشرَ أعدل بمقدار ذرة؛ وبواسطة تهيُّبهم منه، يصير يومياً ذوو النية الحسنة منهم حتى أدواتٍ للظلم. إن النتيجة الشائعة والطبيعية للاحترام المفرط للقانون هو احتمال رؤيتك رتلاً من الجند – عقيداً ورائداً وعريفاً وجندياً عادياً وغلام مدفعية وغيرهم – يمشون في نظام يبعث على الإعجاب ويقطعون التلال والوهاد إلى الحروب، رغماً عنهم – أجَلْ، ضد سليقتهم وضميرهم – الأمر الذي يجعل مشيهم مشقة كبيرة فعلاً، ويسبب خفقاناً في القلب. لا ريب عندهم أن الأمر الذي تورطوا فيه أمر بغيض؛ لكنهم يذعنون له مستكينين. أما وهذه هي الحال، ما يكون هؤلاء؟ أهم بشر أصلاً؟ – أم هم حصون ومخازن ذخيرة صغيرة متحركة في خدمة رجل صاحب نفوذ لا يتورع عن شيء؟ زُرْ رحبة السفن، فتملَّى جندي بحرية، رجلاً كالذي وحدها حكومة أمريكية بوسعها أن تصنعه، أو ما يمكنها أن تصنع من رجل بسحرها الأسود – تجد مجرد ظل للإنسانية وذكرى منها، رجلاً معروضاً حياً للفرجة وواقفاً، ومدفوناً سلفاً، إذا جاز القول، تحت الأسلحة مع الموكب الجنائزي، مع أنه

لم يُسمَع طبلٌ، ولا نغمة جنائزية،
ونحن نعجِّل بجثته إلى المتراس؛
ما من جندي أطلق رصاصة وداع
على القبر الذي ووري فيه بطلُنا.

إن جمهور البشر يخدم على هذا النحو الدولةَ، ليس كبشر أساساً، بل كآلات، بأجسامهم. إنهم الجيش المرابط، والكتائب، والسجَّانون، والشرطة،

والمكلَّفون بالأمن، إلخ. وفي معظم الحالات ينعدم أي إعمال حرٍّ، أياً كان، للمحاكمة أو للحسِّ الأخلاقي؛ بل هم يضعون أنفسهم على صعيد واحد مع الخشب والتراب والحجارة؛ ولعل بالإمكان تصنيع رجال من خشب يفون بالغرض على حدٍّ سواء. ومثل هؤلاء الرجال لا يستدرون من الاحترام بأكثر مما يستدر رجال من قش أو كومة من الوسخ؛ قيمتهم من قيمة الخيل والكلاب وحسب. ومع ذلك فإن لأمثالهم حتى على العموم منزلة مواطنين صالحين. وغيرُهم – كغالبية المشرِّعين والساسة والمحامين والوزراء وأصحاب المناصب – يخدمون الدولة بعقولهم على الأكثر؛ وبما أنهم قلما يقومون بأيِّ تمييز أخلاقي، فإن حظهم في خدمة الشيطان، من غير أن يدروا، لا يقل عن حظهم في خدمة الله. وحدها ثلة صغير – كالأبطال والوطنيين والشهداء والمصلحين بالمعنى العظيم والرجال – يخدمون الدولة بضمائرهم أيضاً، وبالتالي يقاومونها بالضرورة في معظم الأحيان؛ وهي عموماً ما تُعاملهم معاملة الأعداء. أما الرجل الحكيم فلا يكون مفيداً إلا كإنسان، ولسوف يأبى أن يكون مجرد "صلصال"، "يسد ثغرة درءاً للريح"، تاركاً تلك المهمة لرفاته على الأقل:

أنا أشرف نَسَباً من أن أكون ملاَّكاً،
من أن أكون معاوِناً مسلَّطاً،
أو مستخدماً وأداة فعالة
لأية دولة سيدة في العالم بأسره.

مَن يهب نفسه بكليتها لرفاقه البشر يبدو لهم غير ذي نفع وأنانياً؛ أما مَن يهب نفسه لهم جزئياً فيُكرَّس فاعل خير ومُحسناً.

كيف ينبغي للرجل أن يتصرف حيال هذه الحكومة الأمريكية اليوم؟ أجيب بأنه لا يستطيع أن يكون على صلة بها بدون أن يجلِّله الخزي. لا أستطيع برهة واحدة أن أعترف بذلك التنظيم السياسي حكومةً لي وهو حكومة العبيد أيضاً.

البشر جميعاً يعترفون بحق الثورة؛ أي الحق في رفض الولاء للحكومة والحق في مقاومتها عندما يصير استبدادُها أو تقصيرُها عظيماً أو لا يطاق. لكن الجميع تقريباً يقولون إن الأمر ليس كذلك الآن. إنما كان الأمر كذلك، على حدِّ قولهم، في ثورة عام ٧٥. فلو اتفق لأحدهم أن يخبرني بأن الحكومة آنذاك كانت سيئة لأنها فرضت المكوس على بعض السلع الأجنبية المجلوبة إلى موانئها فمن المرجَّح جداً ألا أثير جلبة حول الأمر لأني أستطيع أن أستغني عنها. لكلِّ آلة احتكاكُها؛ ومن الممكن أن يجلب هذا ما يكفي من الخير لموازنة الشر. وعلى كل حال، فإن من عظيم الشر أن يثار لغطٌ بخصوص هذا الأمر. ولكن عندما يصل

الأمر بالاحتكاك إلى امتلاك آلته، وتنظيم الجور والنهب، أقول إننا يجب أن نتخلص من آلة كهذه. بعبارة أخرى، عندما يكون سدسُ تعداد أمة، نهضتْ لتكون ملاذاً للحرية، عبيداً، وتتعرض بلادٌ بأسرها ظلماً لاعتداء جيش أجنبي وغزوه، وتخضع للقانون العسكري، أعتقد أن الأوان يكون قد آن لكي يتمرد شرفاءُ القوم ويثوروا. وما يجعل هذا الواجب عاجلاً أكثر هو أن البلاد المعتدى عليها على هذا النحو ليست بلادنا، بل إن جيش بلادنا هو الغازي.

إن بيلي – وهو مرجع عام في العديد من المسائل الأخلاقية – في الفصل الذي عقده على "واجب الامتثال للحومة المدنية"، يختزل كل التزام مدني إلى تيسير المصلحة؛ ويمضي قائلاً إنه "مادامت مصلحة المجتمع بأكمله تتطلب ذلك، أي مادامت مقاومةُ الحكومة القائمة أو تغييرُها متعذرين بدون حصول بلبلة عامة، فإن الله قد شاء... أن تطاع الحكومة القائمة – إلى حين. وبقبول هذا المبدأ فإن عدالة كلِّ حالةِ مقاومةٍ خاصة تُختزَل إلى حسابٍ لمقدار الخطر والضيم الواقع، من جانب، وإلى احتمالٍ وكلفة تصحيحهما، من جانب آخر." وكل إنسان، على حدِّ قوله، يحكم في ذلك بنفسه. لكن يبدو أن بيلي لم يمعن النظر قط في تلك الحالات التي لا تنطبق فيها قاعدة تيسير المصلحة، والتي ينبغي فيها على الشعب، كما وعلى الفرد، أن يقيم العدل، مهما كلف الأمر. فإذا انتزعتُ ظلماً من رجل يغرق لوحَ خشب عليَّ أن أعيده إليه، حتى إذا جازفتُ بالغرق. وهذا، بحسب بيلي، غير ملائم. لكن من يفوز بحياته، في حالة كهذه، يخسرها. على هذا الشعب أن يكف عن استعباد الناس، وعن شنِّ الحرب على المكسيك، وإن كلَّفه ذلك حياته كشعب. الأمم، في ممارساتها، تتفق مع بيلي؛ ولكن هل من أحد يستصوب ما تفعل ماساتشوستس بالدقة في هذه الأزمة الراهنة؟

دولة كدْراء، فاسقة في ثوبٍ خَلِقٍ من فضة،
ترفع حاشية ثوبها، وتمرِّغ روحَها في الوحل.

من الناحية العملية، ليس المعارضون للإصلاح في ماساتشوستس مئة ألف سياسي في الجنوب، بل هم مئة ألف تاجر ومزارع هنا، همُّهم التجارة والزراعة أكثر من الإنسانية، وليسوا مستعدين لإنصاف العبد والمكسيك، مهما كلف الأمر. لست على خصام مع الأعداء البعيدين، بل مع القريبين في الوطن الذين يتعاونون مع أولئك البعيدين ويزايدون عليهم، القريبين الذين بدونهم يكون البعيدون مأموني الجانب. لقد اعتدنا أن نقول بأن جمهور البشر عير مستعد؛ غير أن التحسين بطيء لأن الصفوة ليسوا مادياً أوفر حكمة أو أفضل من الجمهور. فليس من الأهمية بمكان أن يعادلك الكثيرون خيراً، بقدر ما يهم أن يوجد خير

مطلق ما في مكان ما؛ إذا إن به يختمر المجموعُ كله. هناك الألوف ممَّن يعارضون في الرأي الرقَّ والحرب، لكنهم بالفعل لا يحركون ساكناً لوضع حدٍّ لهما؛ الألوف ممَّن، إذ يحسبون أنفسهم أبناء واشنطن وفرانكلين، يجلسون وأيديهم في جيوبهم، ويقولون إنهم حيارى فيما يفعلون، ولا يفعلون شيئاً؛ ممَّن يقدِّمون حتى التجارة الحرَّة على مسألة الحرية، ويقرؤون بعد العشاء بهدوء الأسعارَ الجاريةَ مع آخر الاستشارات الواردة من المكسيك، ولعلهم ينامون على كليهما قريري العين. فما هو السعر الجاري اليوم لرجل نزيه ووطني؟ إنهم يترددون، ويأسفون، يرفعون العرائض أحياناً؛ لكنهم لا يفعلون شيئاً جدياً وفعالاً. ولسوف ينتظرون، حَسَني النية، أن يقوم آخرون بتدارك الشر، لكيلا يضطرهم شيءٌ بعدُ إلى الأسف. وفي أحسن الأحوال، يمنحون صوتاً رخيصاً وتأييداً واهناً للحق، إذا صادفوه، ويدعون له بالسلامة. هناك تسعمئة وتسعة وتسعون وصياً على الفضيلة مقابل رجل فاضل واحد. لكن من الأيسر التعامل مع المالك الحقيقي لشيء من الوصي المؤقت عليه.

كل تصويت فهو ضرب من اللعب، مثل الدَّامة والنرد، عليه مسحةٌ خفيفة من الأخلاق، فهو تلاعبٌ بالحق وبالباطل، تلاعب بالمسائل الأخلاقية؛ وهو يترافق بالطبع مع الرهان. إن طبع المصوِّتين ليس موضع رهان. أدلي بصوتي، ربما، لصالح ما أظنه حقاً؛ لكني لست معنياً حيوياً بأن يسود الحق. أوثر أن أفوض الأمر إلى الأكثرية. لذا فإن التزامها لا يتعدى الالتزام بتيسير المصلحة. وحتى التصويت لصالح الحق لا يفعل من أجله شيئاً. إنه تعبيرك للناس تعبيراً واهناً عن رغبتك في سيادته، ليس إلا. أما الرجل الحكيم فلن يترك الحق لرحمة المصادفة، كما لن يتمنى له أن يسود عبر سلطان الأكثرية. ليس في عمل جماهير البشر إلا القليل من الفضيلة. وإذا اتفق للأكثرية أن تصوِّت أخيراً على إلغاء الرق فسيكون ذلك لأنهم غير مكترثين للرق، أو لأنه لم يبقَ إلا القليل من الرق يلغيه تصويتهم. وإذ ذاك لن يكون من عبيد سواهم. وحده مَن يؤكد بصوته على حريته هو يستطيعُ صوتُه أن يعجِّل في إلغاء الرق.

سمعتُ عن مؤتمر سوف ينعقد في بلتيمور، أو في غير مكان، لاصطفاء مرشَّح للرئاسة، مؤلَّف في غالبيته من ناشرين ومن رجال يحترفون السياسة؛ لكن ما همَّ أيِّ رجل مستقل وعاقل ومحترم أيَّ قرار يتوصلون إليه؟ ألن نحظى، مع ذلك، بميزة حكمته ونزاهته؟ ألا نستطيع أن نتكل على عدد من الأصوات المستقل؟ أليس هناك أفرادٌ عديدون في البلاد لا يحضرون المؤتمرات؟ ولكن كلا: أرى أن الرجل المحترم قد تخلَّى من فوره عن موقعه، وقد يئس من بلاده عندما

وجدتْ بلادُه ما يستوجب اليأس منه. لذا فهو يسارع إلى تبنِّي واحد من المرشحين المُصطَفَيْن على هذا النحو بوصفه المرشح الوحيد المتيسر، مبرهناً بذلك أنه هو مستباح لأي مقصد من مقاصد الديماغوجي. وصوته لا يزيد قيمة عن صوت أيِّ أجنبي لا يراعي حرمة أو ابن بلد مرتزق قد اشتُرِيَ. طوبى لرَجُلٍ رَجُل، في ظهره عظمٌ ليس خَرِعاً، كما يقول جاري! إحصاءاتنا على غلط: إذ لقد بالغتْ في تقدير عدد السكان. كَم من الرجال يوجد في كل ألف ميل مربع في هذه البلاد؟ يكاد لا يوجد رجل واحد. ألا توفر أمريكا أي ترغيب للرجال لكي يستقروا هنا؟ لقد تضاءل الأمريكي حتى أمسى مخلوقاً عجيباً – مخلوقاً يُعرَف من نموٍّ عضو قطيعيَّته ومن نقصٍ في عقله وفي اتكاله البهيج على النفس؛ مخلوقاً همُّه الأول والرئيسي، لدى قدومه إلى العالم، هو التأكُّد من أن دُورَ الإحسان في حالة صالحة؛ همُّه، حتى قبل أن يرتدي شرعاً زيَّ الرجولة، أن يجمع التبرعات لدعم الأرامل واليتامى المفترضين؛ مخلوقاً، باختصار، لا يغامر بالعيش إلا بمعونة شركة التأمين التعاونية التي وعدت أن تدفنه دفناً لائقاً.

من المفروغ منه أنه ليس من واجب المرء أن ينذر نفسه للقضاء على أيِّ باطل، حتى أشده فداحة؛ قد تكون له بحق اهتمامات أخرى ينشغل بها؛ لكن من واجبه، على الأقل، أن يغسل يديه منه، وإذا لم يولِ الأمر المزيد من التفكير، ألا يمحضه عملياً تأييدَه. إذا نذرت نفسي لمساعٍ ومطالب أخرى، فعليَّ أن أستيقن، على الأقل، من أنني لا أسعى إليها على كتفي رجل آخر. عليَّ أن أفسح له المجال أولاً بحيث يستطيع أن يسعى إلى مطالبه هو الآخر. فانظروا أي تناقض فظ يُتساهَل فيه. لقد سمعت بعض رجال بلدتي يقولون: "ليتهم يأمرونني بالخروج لأساعد في إخماد تمرد للعبيد، أو بالسير إلى المكسيك – فيروا إذا امتثلت"؛ غير أن كلاً من هؤلاء الرجال أنفسهم قد أتى بالبديل، مباشرة بولائه، وعلى نحو غير مباشر قطعاً، على الأقل، بماله. يصفِّق للجندي الذي يرفض أن يخدم في حرب ظالمة أولئك أنفسُهم الذين لا يرفضون تأييد الحكومة الظالمة الذي تشن الحرب؛ وكأن الدولة تائبة إلى درجة أن المرء يتورع عن ضربها بالسوط وهي ترتكب الإثم، لكن ليس إلى درجة أن تكفَّ عنه للحظة. وهكذا فإنه تحت عنوان النظام والحكومة المدنية نُرغَم جميعاً في النهاية على تأدية فروض الولاء لخِسَّتنا وعلى تعزيزها. فبعد حياء المعصية الأول تأتي اللامبالاة بها؛ وهذه من مُنكَرة تصير لاأخلاقية، إذا جاز القول، وليست غير ضرورية تماماً لتلك الحياة التي صنعناها.

إن الثبات أمام الغلط الأوسع والأشيع يتطلب الفضيلة الأكثر زهداً. إن المأخذ الطفيف الذي تتعرَّض له عموماً فضيلةُ الوطنية يؤخَذ على النبلاء في الأعم

الأغلب. فالذين، وإن اعترضوا على طبع حكومة ما وعلى إجراءاتها، يرضخون لها في ولائهم ودعمهم، هم مؤيِّدوها الخُلَّص وهم، وفي الكثير من الأحيان، أخطر العراقيل أمام الإصلاح. بعضهم يرفع العرائض إلى الدولة لكي تحلَّ الاتحاد، وتضرب كشحاً عن إيعازات الرئيس. فلم لا يحلُّونه بأنفسهم – أي الاتحاد بينهم وبين الدولة – فيرفضون دفع أقساطهم إلى خزينتها؟ أليس موقفهم في علاقتهم بالدولة مماثلاً لموقف الدولة في علاقتها بولايات الاتحاد؟ أليست الأسبابُ التي منعت الدولةَ من مقاومة ولايات الاتحاد هي عينها الأسباب التي منعت الولايات من مقاومة الدولة؟

كيف يرتضي إنسان لنفسه مجرد النظر في رأي والتمتع به؟ هل ثمة أية متعة في ذلك إذا كان رأيُه هو مصدر الضيم النازل به؟ إذا أخذ منك جارُك بالحيلة دولاراً واحداً فإنك لا ترتضي الاكتفاء بمعرفتك أنه احتال عليك، أو بقولك إنه احتال عليك، أو حتى بالتوسل إليه أن يدفع لك مستحَقَّك عليه؛ بل تتخذ فوراً خطوات فعلية للحصول على المبلغ كاملاً، وتستيقن من أنه لن يحتال عليك من جديد. إن العمل بمقتضى مبدأ، وإدراك الحق وإحقاقه، يغير في الأشياء وفي العلاقات؛ وهو ثوري من حيث الجوهر، ولا يتسق بالتمام مع أي شيء كان. إنه لا يشطر الدول والكنائس وحسب، بل والعائلات أيضاً؛ لا بل ويشطر الفرد، مُفرِزاً الشيطاني فيه من الإلهي.

القوانين الظالمة موجودة: فهل نقنع بطاعتها، أم نسعى إلى تعديلها، فنطيعها حتى ننجح في مسعانا، أم ننتهكها على الفور؟ في ظل حكومة كهذه، يظن الناس عموماً أن عليهم أن ينتظروا ريثما يُقنِعون الأكثريةَ بتغييرها. وهم يظنون أنهم، إذا ما قاوموا، فإن الدواء سيكون أسوأ من الداء. لكن الحكومة هي المسؤولة عن كون الدواء أسوأ من الداء؛ فهي التي تجعله أسوأ. فلم لا ترى من الأنسب أن تستبق الأمور وتمهد للإصلاح؟ لم لا تراعي أقليتَها الحكيمة؟ لماذا تصرخ وتقاوم قبل أن يصيبها الأذى؟ لم لا تشجع مواطنيها أن يكونوا على أهبة الاستعداد لتنبيهها إلى أغلاطها، وتفعل خيراً مما تتطالبهم أن يفعلوا؟ لماذا تصلب المسيح دائماً، وتعلن الحرم على كوبرنيكوس، وتَصِمُ واشنطن وفرانكلين بالتمرد؟

يتراءى للمرء أن الإنكار العملي المقصود لسلطتها هو الإساءة الوحيدة التي لم تحتطْ لها الحكومة قط؛ وإلا فلم لم تخصَّص له العقوبة المحددة والملائمة والمتناسبة معه؟ إذا رفض رجل لا يملك شروى نقير مرة واحدة أن يؤدي تسعة شلنات للدولة فإنه يودَع السجن لفترة لا يحددها أي من القوانين التي أعرفها، ولا

يعيِّنها إلا اجتهادُ الذين سجنوه؛ لكن إذا اتفق له أن يسرق من الدولة تسعين مرة تسعة شلنات فإنه سرعان ما يُسمَح بإطلاق سراحه.

إذا كان الظلم جزءاً من الاحتكاك الضروري بين تروس آلة الحكومة، ليكن، ليكن: فربما اهترأتْ حتى الملاسة – لكن الآلة سوف تبلى حتماً. إذ خصَّ الظلمُ نفسَه بنابض، أو ببكرة، أو بحبل، أو بعتلة، فلكَ ربما أن تنظر فيما إذا لم يكن الدواء أسوأ من الداء؛ لكن إذا كان الظلم من طبيعةٍ تتطلب منك أن تصير أداة ظلم لغيرك، عندئذٍ، أقول لك: خالِف القانون؛ ولتكن حياتك احتكاكاً مضاداً لوقف الآلة. فما ينبغي عليَّ أن أفعله هو التيقن، في كل حال، من أني لا أشارك في الباطل الذي أدينُه.

أما عن تبنِّي الطرق التي أتاحتْها الدولةُ لمعالجة الداء، فلا أعرف شيئاً عن مثل هذه الطرق. فهي تستغرق وقتاً من الطول بما قد يودي بحياة إنسان. عندي شؤون أخرى أنصرف إليها. لم آتِ إلى هذا العالم أساساً لكي أجعل منه مكاناً طيباً أحيا فيه، بل لكي أحيا فيه وحسب، حسناً كان أم سيئاً. ليس على الإنسان أن يفعل كل شيء، بل شيء واحد؛ ولأنه ليس في وسعه أن يفعل كل شيء، ليس من الضروري أن يفعل شيئاً خاطئاً. ليس من شأني أن أرفع عريضة إلى الحاكم أو المشرِّع بأكثر مما هو من شأنهما أن يرفعا عريضة إليَّ؛ وإذا لم يحملا عريضتي على محمل الجد ماذا عليَّ أن أفعل حينئذٍ؟ بيد أن الدولة في هذه الحالة لم تتحْ طريقاً: دستورها نفسه هو الشر. قد يبدو هذا من قبيل القسوة والعناد وعدم الموادعة؛ لكن قوامَه معاملةُ الروح الوحيدة التي بوسعها أن تقدِّره أو تستحقه بأقصى ما يكون من اللطف والاعتبار. كذلك هو كل تغيير نحو الأفضل، مثل الولادة والموت، اللذين يختلج لهما الجسم.

لا أتردد في القول إن على أولئك الذين يسمُّون أنفسهم دعاةَ إبطال الرق أن يسحبوا فعلاً على الفور دعمَهم من حكومة ماساتشوستس، شخصياً ومالياً، ولا يلبثوا بانتظار أن يشكِّلوا أكثرية رجل واحد، قبل أن يتولوا الحق بالسيادة من خلالها. أعتقد أن حسبهم أن يكون الله في صفهم، بدون أن ينتظروا ذلك الرجل الآخر. علاوة على ذلك، فإن أي رجل على حقٍّ أكثر من جيرانه يشكِّل أصلاً أكثرية رجل واحد.

أقابل هذه الحكومة الأمريكية، أو ممثلتَها حكومة الولاية، مباشرة، ووجهاً لوجه، مرة كل عام – لا أكثر – في شخص جابي ضرائبها؛ وهذه هي الكيفية الوحيدة المتاحة بالضرورة لرجل في موقعي لمقابلتها؛ وهي تقول حينئذٍ بصراحة: اعترف بي. إن الكيفية الأبسط، والأكثر فاعلية، وفي الوضع الحالي للأمور،

الكيفيةَ التي لا غنى عنها إلى أبعد حد، للتعامل معها على هذا الصعيد، وللتعبير عن رضاك الصغير عنها وعن محبتك لها، هي إنكارُها إذن. إن جاري المدني، جابي الضرائب، هو بعينه الرجل الذي يتعين عليَّ أن أتعامل معه – إذ إني، في المآل، أخاصم بشراً ولا أخاصم كاغداً – وهو قد اختار بإرادته أن يكون وكيلاً عن الحكومة. فكيف له أن يعرف يوماً معرفة جيدة ما هو وما يفعل كموظف للحكومة، أو كإنسان، حتى يكون مُجبَراً على النظر فيما إذا كان سيعاملني – أنا، جاره الذي يكنُّ له الاحترام – كجارٍ وكإنسان طيب السريرة، أو كمهووس مثير للشغب، ويرى إن كان يستطيع أنْ يتخطى هذا الحائل دون جيرته بدون خاطر أو كلام أكثر رعونة وهياجاً يتناسب مع فعله. غير أني أعرف هذا جيداً: إذا قام ألف رجل، مئة رجل، عشرة رجال أستطيع أن أسميهم – عشرة رجال شرفاء – لا بل إذا قام فعلاً رجل شريف واحد فقط، في ولاية ماساتشوستس، وقد أعتق عبيده، بالانسحاب من هذه الشراكة، وحُبِسَ من أجل ذلك في سجن المقاطعة، لكان ذلك هو إلغاء العبودية في أمريكا. إذ إنه لا يهم مطلقاً ما تبدو عليه البداية من صِغَر: فما يتم على الوجه الصحيح مرة يتم للأبد. لكننا نؤثر أن نتكلم على الأمر: تلك، نقول، هي رسالتنا. غير أن الإصلاح يحتفظ بأعداد غفيرة من الصحف في خدمته، لكنه لا يحتفظ برجل واحد. إذا اتفق لجاري الموقر – سفير الدولة، الذي سوف يخصِّص أيامه لتسوية مسألة حقوق الإنسان في قاعة المجلس، بدلاً من أن يُهدَّد بسجون كارولينا – أن يقاضي سجين ماساتشوستس، فإن تلك الولاية التي تحرص كل الحرص على أن تلقي بتبعة إثم الرق على شقيقتها – مع أنها في الوقت الحاضر لا تتورع عن الكشف في مسلك لا إكرام للضيف فيه فقط أساساً لخصومة معها – والمشرِّع لن يرجئ النظر في القضية إلى الشتاء التالي.

في ظل حكومة تسجن أياً كان ظلماً فإن المكان الصحيح للإنسان العادل هو أيضاً السجن. المكان اللائق اليوم، المكان الوحيد الذي خصَّصته ماساتشوستس لأكثر أرواحها حرية وأقلها قنوطاً، هو في سجونها، يودَعون فيها وتوصَد أبوابُها دونهم والدولةَ بفعل الدولة نفسه، بما أنهم وضعوا نفسهم خارجها إذ عملوا بمبادئهم. هناك يجدهم العبدُ الهارب، والسجينُ المكسيكي المفرَج عنه على شروط، والهنديُّ القادم للترافع عن الضيم النازل على قومه؛ ذلك المكان المعزول – لكن الأشرف والأكثر حرية، حيث تودِع الدولة أولئك الذين لا يوالونها، بل يناوئونها – هو الدارُ الوحيدة في دولة عبيد يستطيع فيها إنسانٌ حرٌّ أن يقيم كريماً. أما إذا ظن بعضهم أن تأثيرهم سوف يضيع هناك، وأن أصواتهم لن تعود تطرق أذن الدولة، وأنهم لن يعودوا كالأعداء بين جدرانه، فإنهم لا يعرفون إلى أي حدٍّ

يتفوق الحقُّ قوةً على الباطل، ولا إلى أيِّ حدٍّ أبلغ وأفعل يقدر الذي ذاق المقامَ قليلاً في سجنه أن يجاهد ضد الظلم. أدْلِ بصوتك كلِّه، وليس بقصاصة ورق وحسب، بل بتأثيرك برمَّته. الأقلية منزوعة القوة حين تنصاع للأكثرية؛ وهي إذ ذاك ليست أقلية حتى؛ لكنها لا تُقاوَم عندما تنوء بوزنها المعنوي كلِّه. فإذا كان البديل إما إبقاء الرجال الأبرار في السجن، وإما التخلِّي عن الحرب وعن الرق، فإن الدولة لن تتردد في أيهما تختار. هب أن ألف رجل استنكفوا عن دفع فواتير ضرائبهم هذا العام، فهذا لن يكون إجراءً عنيفاً ودموياً، كما سيكون فيما لو دفعوها، ومكَّنوا الدولة بذلك من ارتكاب العنف وسفك دم بريء. وهذا، في الواقع، هو تعريف الثورة السِّلمية، إذا أمكن أن توجد ثورة كهذه. فإذا سألني جابي الضرائب، أو أي موظف دولة آخر، كما سألني أحدُهم فعلاً: "ولكن ماذا سأفعل؟" فجوابي سيكون: "إذا أردت حقاً أن تفعل شيئاً، استقلْ من وظيفتك." إذ عندما يرفض الفردُ من الرعية الولاءَ، ويستقيل الموظفُ من وظيفته، فإن الثورة ناجزة. ولكن حتى على افتراض أن الدم سوف يُسفَك، أليس ثمة نوعٌ من سفك الدم عندما يُجرَح الضمير؟ عبر هذا الجرح تنزُّ رجولةُ المرء وخلودُه، وينزف حتى الموت الأبدي. وإني لأرى هذا الدم ينزُّ الآن.

لقد افترضتُ حبس المخالِف بدلاً من الاستيلاء على ماله – مع أن كليهما سوف يخدم الغاية نفسها – لأن الذين يصرون على الحق الأنقى، وهم، بالتالي، الأخطر على دولة فاسدة، لم يصرفوا غالباً وقتاً طويلاً في تكديس الأملاك. لمثل هؤلاء لا تقدِّمُ الدولةُ بالمقارنة إلا خدمات ضئيلة، وإن ضريبةً طفيفة من دأبها أن تبدو في نظر هؤلاء باهظة، ولاسيما إذا اضطروا إلى كسبها بعمل خاص بسواعدهم. فلو كان ثَمَّ امرؤ يعتاش بالكلية بدون استعمال المال فإن الدولة نفسها قد تتردد في مطالبته به. غير أن الرجل الثري – لئلا نقوم بأية مقارنة باعثة على الحسد – مباع دوماً للمؤسَّسة التي تجعله ثرياً. وبكلام مطلق، كلما ازداد المال، تضاءلت الفضيلة؛ إذ إن المال يتوسط بين الإنسان وأغراضه، ويحصل له عليها؛ وبالتأكيد ليس الحصول عليه من عظيم الفضائل. فالمال يُخمِد العديد من الأسئلة التي لولاه لاضطر إلى الإجابة عليها؛ في حين أن المسألة الجديدة الوحيدة التي يطرحُها المالُ هي المسألة الصعبة، لكن النافلة: كيف ينفقه؟ وبهذا فإن أساسه الأخلاقي ينسحب من تحت قدميه. وفرصُ الحياة تتناقص في تناسب عكسي مع تزايد ما يسمى "الوسائل". لذا فإن خير ما يفعله المرء لتثقيف نفسه إذا كان غنياً هو أن يسعى إلى تنفيذ تلك الخطط التي وضعها حين كان فقيراً.

لقد أجاب المسيح الهيروديين بحسب سؤالهم. قال: "أروني مال العِشر"؛ – فأخرج أحدُهم من جيبه درهماً؛ – فإذا استعملتم مالاً عليه صورة قيصر، وصيَّره قيصر سارياً وقيِّماً، أي إذا كنتم من رجال الدولة، وكنتم تتمتعون مسرورين بامتيازات حكومة قيصر، إذ ذاك ردُّوا له بعض ماله عندما يطلبه. "أعطوا لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله" – تاركين إياهم أجهل مما سبق فيما يخص أي شيء سيكون لمن؛ إذ إنهم لم يكونوا أصلاً يودون أن يعرفوا.

كلما تحادثت مع أكثر جيراني تحرراً، أدركت أنه أياً كان ما قد يقولون في سعة المسألة وجدِّيتها، ومهما كان مبلغ اعتبارهم للأمان العام، فإن لبَّ المسألة هو أنهم لا يستطيعون أن يستغنوا عن حماية الحكومة الحالية، وهم يخشون عواقب عصيانها على أملاكهم وعائلاتهم. من جانبي لا أحبذ فكرة الاتكال أصلاً على حماية الدولة. لكني إذا تنكَّرت لسلطة الولاية عندما تقدِّم لي كشفها الضريبي فإنها سرعان ما سوف تستولي على أملاكي كلها وتبدِّدها، وبذلك تتحرش بي وبأولادي بغير حد. وهذا يشق عليَّ. إن هذا ما يجعل من المتعذر على المرء أن يحيا حياة شريفة، وفي الوقت نفسه مريحة، من حيث الأمور الخارجية. ولن يكون من المجدي كنز الأملاك، إذ لا بدَّ للأمر من أن يتكرر. ينبغي عليك أن تستأجر أو تستحلَّ مكاناً، ولا تزرع إلا محصولاً قليلاً تأكله سريعاً. ينبغي عليك أن تحيا في دخيلة نفسك، وتتكل على نفسك دوماً، مشمِّراً عن ساعديك، مستعداً للانطلاق، ولا تملك الكثير من الأغراض. بوسع امرئ أن يصير غنياً حتى في تركيا، إذا حرص أن يكون من كلِّ وجهٍ من الرعايا الصالحين للحكومة التركية. لقد قال كونفوشيوس: "إذا حُكِمَت الدولةُ وفق مبادئ العقل فإن الفقر والبؤس يكونان وصمتي عار؛ أما إذا لم تُحكَم الدولةُ وفق مبادئ العقل فإن الثروة والمفاخر يكونان وصمتي عار." أقول لا: فإلى أن أحتاج أن تشملني حماية ماساتشوستس وأنا في ثغر جنوبي بعيد، حيث تتعرض حريتي للخطر، أو إلى أن أصمِّم فقط على تعمير ضيعة لي في موطني بالمساعي السلمية، يجوز لي أن أرفض البيعة لماساتشوستس ولحقِّها على مُلكي وحياتي. وإنه ليكلِّفني أقل من كلِّ الوجوه أن يُنزَل بي عقابُ عصيان الدولة من أن أنصاع. الأحرى بي عند ذاك أن أشعر وكأن قيمتي تضاءلت.

منذ بضع سنوات استدعتْني الدولة لمصلحة الكنيسة وأمرتني بدفع مبلغ معيَّن مقابل إعالة رجل دين كان أبي مواظباً على حضور مواعظه، ولم أكن قط. قالت لي: "ادفع، أو دونك الحبس في السجن." فرفضت أن أدفع. لكن، لسوء الحظ، وجد رجل آخر أن من اللائق أن يدفعه. ما كنت لأفهم لماذا ينبغي على

ناظر المدرسة أن يؤدي الضريبة لإعالة الكاهن، وليس العكس؛ ذلك أني لم أكن ناظر مدرسة الدولة، بل كنت أقوم بأودي من الهبات الطوعية. ما كنت لأفهم لماذا لا تقوم المدرسة الثانوية بتقديم كشفها الضريبي وتكلف الدولة بدعم طلبها، وكذلك الكنيسة. غير أني، نزولاً عند طلب اللجنة الناظرة في القضية، تنازلت وصرحت كتابة بما مفاده: "أنا، هنري ثورو، أعلن على رؤوس الأشهاد أنني لا أود أن أُعتبَرَ عضواً في أية هيئة اجتماعية لم أنتسب إليها." وهذا التصريح سلَّمتُه إلى كاتب البلدة، وهو في حوزته. عندئذٍ فإن الدولة، إذ تنامى إليها أنني لم أكن أود اعتباري عضواً في تلك الكنيسة، كفَّتْ منذئذٍ عن مطالبتي بشيء مثل هذا – وإن تكن قالت إنه ينبغي عليها أن تتقيد بإجرائها الأصلي في تلك المرة. ولو كنت أستطيع أن أحصي كافة الجمعيات التي لم أنتسب إليها قط لاستقلتُ منها جميعاً على التفصيل؛ لكني لم أعرف أين كنت أستطيع أن أجد قائمة مستوفية بها.

امتنعتُ عن تأدية ضريبة الخِراج مدة ست سنوات. ولقد أودِعتُ السجن مرة من جراء ذلك مدة ليلة واحدة؛ ثم، وأنا واقف شاخصاً في جدران الحجر الصلب، ذات القدمين أو الثلاثة سماكةً، وباب الخشب والحديد، ذا القدم سماكةً، وقضبان النافذة الحديدية التي كانت تصفِّي الضوء كالمخلاة، لم يسعني إلا أن أنصعق بجنون تلك المؤسَّسة التي كانت تعاملني وكأني مجرد لحم ودم وعظام، لا أصلح إلا للحبس. تفكَّرتُ في أنها قطعاً خَلُصَتْ أخيراً أن هذه أحسن معاملة كان في وسعها أن تخصَّني بها، ولم تفكِّر قط في أن تنتفع بخدماتي في صورة أو في أخرى. تبيَّن لي أنه لئن كان هناك جدار من الحجر بيني وبين سكان بلدتي هناك جدار أشد عصياناً على التسلق أو الاختراق دونهم وبلوغ مقام الحرية الذي أنا فيه. لم أشعر ولا للحظة أنني محتجَز، وبدت لي الجدران مضيعة هائلة للحجر والملاط. شعرت وكأني وحدي من بين سكان بلدتي قد سدَّدتُ ضريبتي. لقد أُسقِط في يدهم صراحةً في كيفية معاملتي، لكنهم تصرفوا كأشخاص سيئي التربية. فكلُّ تهديد وكلُّ إطراء من جانبهم انطوى على حماقة؛ إذ إنهم ظنوا بأني أتحرق رغبة في الوقوف على الجانب الآخر من ذلك الجدار الحجري. لم أملك إلا أن أبتسم لرؤية مبلغ اجتهادهم في إغلاق الباب على تأملاتي، التي كانت تتبعهم من جديد خارجاً بدون عارض أو عائق، وكأن مكمن الخطر كلِّه كان فيها. ولما لم يقدروا على الوصول إليَّ، عزموا على معاقبة جسمي؛ مثل الصبية، إذا لم يتمكنوا من شخص يكيدون له فإنهم يؤذون كلبه. تبيَّن لي أن الدولة معتوهة، وأنها كالمرأة العزباء المتخوفة على ملاعقها الفضية، وأنها لم تكن تميِّز أصدقاءها من أعدائها، وهكذا فقدتْ كلَّ احترام متبقٍّ فيَّ حيالها، فأشفقتُ عليها.

بذلك فإن الدولة لا تواجه أبداً حسَّ المرء، العقلي أو الأخلاقي، بل جسمه وحواسه فحسب. فهي ليست مسلحة بالفطنة وبالصدق الرفيعين، بل بالقوة الجسمانية المتفوقة. لم أولد لكي أُكرَه على شيء. ولسوف أتنفس على سجيتي. ولنرَ من منَّا الأقوى. أية قوة يتصف بها الجمع الغفير؟ وحدهم يستطيعون إكراهي مَن يمتثلون لقانون أعلى من القانون الذي أمتثل له. إنهم يُكرهونني على أن أصير مثلهم. لم أسمع برجال أكرهَهم جمهورُ الناس على اتخاذ هذه الطريق أو تلك. فأي ضرب من الحياة كان هذا سيكون؟ عندما أقابل حكومة تقول لي: "مالك أو حياتك"، لماذا أتعجل الدفع إليها بمالي؟ قد تكون واقعةً في ضائقة عظيمة وليست تعرف ما ينبغي عمله: وهذا لا حيلة لي فيه. فعليها أن تساعد نفسها، فتفعل كما أفعل. والأمر لا يستحق التباكي عليه. لست مسؤولاً عن الدوران الناجح لآلة المجتمع؛ إذ لست من أبناء المهندس. أدرك أنه عندما تسقط بلوطة وكستناءة جنباً إلى جنب فما من واحدة منهما تبقى ساكنة لكي تفسح المجال للأخرى، بل كلتاهما تنصاع لقوانينهما، فتنبتان وتنموان وتزدهران بأحسن ما تستطيعان، إلى أن يتفق لإحداهما أن تلقي بظلها على الأخرى وتدمرها. إذا لم تستطع نبتة أن تحيا بحسب طبيعتها فإنها تموت – وكذلك الإنسان.

كانت الليلة في السجن جديدة وممتعة إلى حدٍّ كبير. كان السجناء في قمصانهم يتمتعون بتجاذب أطراف الحديث وبهواء المساء في المدخل عندما دخلت. غير أن السجان قال: "هيا، يا شباب، حان وقت الإغلاق"؛ وهكذا تفرَّقوا، وسمعت صوت خطواتهم تؤوب إلى مقصوراتهم المجوفة. قدَّم السجانُ لي رفيقَ سكني بوصفه "صاحباً من الدرجة الأولى ورجلاً ذكياً". وعندما أوصِدَ البابُ أرشدني الرجلُ إلى مكان تعليق قبعتي وكيفية تدبُّره الأمورَ هناك. كانت الحجرات تُطلى ببياض الكلس مرة كلَّ شهر؛ وهذه، على الأقل، كانت أشدها بياضاً، مؤثثة على أبسط ما يمكن، ولعلها أنظف مقصورات البلدة وأكثرها ترتيباً. كان بالطبع يريد أن يعرف من أين أتيت وماذا جاء بي إلى هناك؛ وعندما أخبرته سألته بدوري كيف جاء إلى هناك، مفترضاً أنه رجل مستقيم، بالطبع؛ وعلى مرِّ الأيام، أعتقد أنه كان كذلك. قال: "عجباً لهم يتهمونني بإحراق مخزن للتبن – وأنا لم أفعل ذلك قط." لعل أقرب ما استطعت اكتشافه إلى الواقع، أنه، أغلب الظن، ذهب إلى فراشه في المخزن مخموراً، ودخَّن غليونه هناك؛ وهكذا احترق المخزن. لقد ذاع صيتُه كرجل ذكي، وكان ينتظر هناك منذ حوالى ثلاثة أشهر منتظراً أوان محاكمته، وربما كان عليه أن ينتظر مدة أطول بكثير؛ لكنه أَلِفَ الحياة هناك

ورضي بها تماماً، بما أنه يحصل على الطعام والمأوى مجاناً، ويعتقد بأنهم يُحسِنون معاملته.

خصَّ نفسه بنافذة وخصصت نفسي بالأخرى؛ وقد رأيت أنه لو قُيِّض للمرء أن يمكث هناك طويلاً لوجد أن عمله الرئيسي يقتصر على النظر من النافذة. سرعان ما قرأت كلَّ الكراريس المتروكة هناك، وعاينت المكان الذي فرَّ منه سجناء سابقون، وأين جرى نشر قضبان إحدى النوافذ، واستمعت إلى قصص عن مختلف شاغلي تلك الحجرة؛ إذ إنني وجدت أنه حتى هنا كان ثمة تاريخ وثرثرة لا تسري أبداً خارج جدران السجن. فلعل هذا هو البيت الوحيد في البلدة الذي تُقرَض فيه أبياتُ شعر، لا تلبث فيما بعد أن تُطبَع على شكل تعميم، لكنها لا تُنشَر. ولقد اطلعت على قائمة طويلة فعلاً من الأبيات التي ألَّفها بعض الشبان ممَّن ضُبِطوا في محاولة للفرار، فثأروا لأنفسهم بغنائها.

استخلصتُ من رفيقي السجين كلَّ ما استطعت، مخافة ألا أحظى برؤيته ثانية؛ لكنه أخيراً دلَّني على فراشي وتركني أطفئ المصباح.

كان مبيتُ ليلة هناك أشبه بالسفر في بلاد بعيدة، بلاد ما كنت لأتوقع أبداً أن أشاهدها. لاح لي أنني لم أسمع قط صوت ساعة البلدة تطرق من قبل، ولا أصوات المساء في القرية؛ ذلك أننا نمنا تاركين النوافذ التي كانت داخل القضبان مفتوحة. كان الأمر أشبه برؤية القرية التي شهدتْ مولدي في ضوء العصور الوسطى، فتحول نهر كونكورد فيها إلى مجرى الراين، وتتابعت رؤى الفرسان والحصون أمام ناظري. تلك كان أصوات الأهالي التي كنت أسمعها في الشوارع. كنت رغماً عني مشاهداً ومستمعاً لكل ما كان يحصل ويقال في مطبخ فندق البلدة المجاورة – وتلك كانت تجربة جديدة ونادرة تماماً لي. كانت نظرةً إلى مسقط رأسي أقرب. كنت في داخله نوعاً ما. لم أكن قد رأيت مؤسَّساته من قبل قط. وهذه واحدة من مؤسَّساته غير المألوفة؛ ذلك أنها مركز ناحية. وبدأت أفهم ما كان عليه سكانها.

في الصباح كان إفطارنا يمرَّر لنا من الفتحة في الباب، في صينيات صغيرة مستطيلة مربعة، جُعِلَتْ لتناسب الفتحة، وعليها مكيال من الشوكولاتة، مع خبز أسمر، وملعقة حديدية. وعندما نادوا علينا لاسترداد الأوعية من جديد، كنت غشيماً إلى حدٍّ أني أعدت ما تركته من الخبز؛ لكن رفيقي قبض عليه على عجل وقال إنني يجب أن أستبقيه للغداء أو للعشاء. وبعيدئذٍ سُرِّح للعمل في جمع التبن في حقل مجاور، كان يذهب إليه كل يوم ولا يؤوب منه إلا ظهراً؛ لذا فقد تمنى لي يوماً طيباً، قائلاً إنه يشك أنه سيراني من جديد.

عندما خرجت من السجن – ذلك لأن أحدهم تدخل ودفع تلك الضريبة – لم ألحظ تغيرات عظيمة حصلت على العموم،، كالتي يلحظها من يدخل شاباً ثم يخرج رجلاً شابَ شعرُه وترنحت مشيتُه؛ ومع ذلك فإن تغيراً ما طرأ على المشهد في نظري – البلدة، والولاية، والإنسان – أعظم من أيِّ تغيُّر يمكن لمجرَّدِ الزمن أن يُحدِثَه. رأيت الولاية التي أعيش فيها بوضوح أكبر أيضاً. رأيت إلى أيِّ حدٍّ يمكن للناس الذين أحيا بين ظهرانيهم أن يؤتَمنوا كجيران وأصدقاء طيبين؛ أن صداقتهم تقتصر على فصل الصيف وحسب؛ أنهم لا يبالون كثيراً بعمل الحق؛ أنهم سلالة مختلفة عني بسبب من تحاملاتهم وخرافاتهم، شأنهم شأن الصينيين والملاويين سواء بسواء؛ أنهم في تضحياتهم من أجل الإنسانية لا يخاطرون بشيء، ولا حتى بممتلكاتهم؛ أنهم في المآل ليسوا بهذا النبل، بل يعامِلون السارق كما عاملهم، ويأملون، بفضل تديُّن خارجي وبضع صلوات، وبفضل السير، من حين لآخر، على درب مستقيم معين لكنه عقيم، أن يخلِّصوا نفوسهم. قد يكون في هذا تحاملٌ في الحكم على جيراني؛ فإني أعتقد أن الكثيرين منهم لا يدرون أن لديهم في قريتهم مؤسَّسة كالسجن.

لقد جرت العادة في قريتنا سابقاً، أنه عندما يخرج مدين مسكين من السجن، يقوم معارفه لتحيته، ناظرين من خلال أصابعهم المتقاطعة بما يشبه قضبان نافذة السجن: "كيف حالك؟" غير أن جيراني لم يحيُّوني هكذا، بل نظروا إليَّ أولاً، ثم إلى بعضهم بعضاً، وكأني عدت من رحلة طويلة. لقد أودِعتُ السجن وأنا ذاهب إلى الإسكافي لاسترداد حذاء لي كان يصلحه. وعندما أخلي سبيلي في صباح اليوم التالي، مضيت لإنهاء مأموريتي، ثم، وقد احتذيت حذائي المتعافي، انضممت إلى فريق من جامعي العنَّبية كانوا يتحرقون إلى وضع أنفسهم تحت قيادتي؛ وفي غضون نصف ساعة – ذلك أن الجواد سرعان ما لُجِمَ – وجدت نفسي وسط حقل من العنَّبية، على واحد من أعلى التلال، على مسافة ميلين، وهناك توارت الولاية عن الأنظار.

تلكم هي قصة *سجوني* برمَّتها.

لم أرفض قط دفع ضريبة الطريق العام، لأني لا أقل رغبة أن أكون جاراً طيباً مني أن أكون من الرعايا السيئين؛ أما عن دعم المدارس فإني أؤدي دوري لتربية أبناء وطني الآن. ولست أرفض دفع الكشف الضريبي بسبب بند معين وارد فيه. أود ببساطة رفض البيعة للولاية، وذلك للانسحاب والوقوف منحازاً عنها بالفعل. لا أبالي باقتفاء مسار دولاري، لو استطعت، اللهم إلا عندما يشتري رجلاً أو بارودة يقتل بها رجلاً – والدولار بريء – لكني حريص على اقتفاء آثار

بيعتي. والواقع أنني أعلن الحرب بهدوء على الولاية، على طريقتي، على الرغم من أني سأدأب على استعمالها والاستفادة من أية ميزة لها، كما جرت العادة في مثل هذه الحالات.

إذا دفع غيري الضريبة المطلوبة مني، تعاطفاً مع الدولة، فهم يفعلون ما سبق أن فعلوه في حالتهم، أو هم بالحري يحضُّون على الظلم إلى حدٍّ أكبر مما تتطلبه الدولة. أما إذا دفعوا الضريبة اهتماماً في غير محلِّه في الفرد المضروب، حرصاً على ممتلكاته، أو للحيلولة دون ذهابه إلى السجن، فذلك لأنهم لم يتمعَّنوا في حكمةٍ إلى أيِّ حدٍّ يَدَعون مشاعرهم الخاصة تتدخل في الخير العام.

ذلك، إذن، هو موقفي في الحاضر. لكن مهما بلغ حذر المرء في حالة كهذه فهذا لا يكفي، مخافة أن يجنح عملُه من جراء المعاندة أو الاعتبار المفرط لآراء الناس. فليحرص على أن يعمل فقط ما يخصُّه ويخصُّ الساعة.

يخطر ببالي أحياناً – عجباً كيف أن هؤلاء القوم طيبوا النوايا، لكنهم جاهلون وحسب؛ ولكانوا أحسنوا العمل لو أنهم كانوا يعرفون كيف: لماذا تكلف جيرانك مشقة معاملتك بما ليسوا ميالين إليه؟ لكني أعود فأقول: هذا ليس سبباً يجعلني أفعل كما يفعلون، أو أسمح للآخرين أن يكابدوا شقاءً أكبر بكثير، لكنْ من نوع آخر. كذلك، أقول لنفسي أحياناً: عندما يطلب ملايين الناس منك، بدون احتداد، بدون سوء نية، بدون شعور شخصي من أيِّ نوع، بضعة شلنات فقط، بدون أن يستطيعوا – فذلك هو تكوينهم – الرجوعَ عن طلبهم أو تغييره، وبدون أن تستطيع، من جانبك، التماسَ ملايين آخرين، لماذا تعرِّض نفسك لتلك القوة العجماء الجارفة؟ أنت لا تقاوم البرد والجوع، الرياح والأمواج، بهذا العناد، بل تخضع بهدوء لألف ضرورة مشابهة. أنت لا تزج برأسك في النار. ولكن كما أنني نسبياً لا أعتبر هذه القوة قوة عجماء تماماً، بل قوة بشرية جزئياً، وأعتبر أن العلاقات التي تربطني بأولئك الملايين هي علاقات بعدد مماثل من البشر، وليست بأشياء عجماء أو جامدة، أرى أن هذا الالتماس ممكن، أولاً وآنياً، منهم إلى باريهم، وثانياً، منهم إليهم. لكني إذا وضعت رأسي في النار عامداً فلا التماس ممكناً للنار أو لباري النار، ولا أنحو باللائمة إلا على نفسي. فإذا استطعت أن أقنع نفسي بأن لي حقاً ما بأن أرضى بالبشر كما هم، وبأن أعاملهم على هذا الأساس، وليس، من بعض الوجوه، على أساس متطلباتي وتوقعاتي لما يجب أن يكونوا وأكون إياه، إذ ذاك فإني، كالمسلم والجبري الطيب، لا بدَّ أن أسعى إلى الرضى بالأشياء على حالها، وأقول بأنها مشيئة الله. وفوق ذلك كله، هناك هذا الفارق بين مقاومة هذا ومقاومة قوة محض عجماء أو طبيعية، المتمثل في أنني أستطيع أن

أقاومه بشيء من الفعالية؛ إنما لا يمكنني أن أتوقع، مثل أورفيوس، تغيير طبيعة الصخور والأشجار والبهائم.

لا أود أن أتخاصم مع أيِّ رجل أو أمَّة. لا أود أن أماحك في الكلام، أن أقيم تمييزات دقيقة، أو أضع نفسي في منزلة أحسن من منزلة جيراني. أفتش بالحري، إذا جاز لي القول، عن عذر حتى للانصياع لقوانين البلاد. لا بل إني أكثر من متأهب للانصياع لها. أجل، عندي ما يبرر لي الشك في نفسي في هذا الصدد؛ وكل عام، عندما يزورني جابي الضرائب، أجدني مستعداً لاستعراض أعمال ومواقف الحكومتين، الحكومة العامة وحكومة الولاية، وروح الناس، حتى أكتشف عذراً للامتثال.

علينا أن نحنَّ على وطننا كما نحنَّ على والدينا،
وإذا اتفق لنا ذات مرة أن نربأ
بحبنا أو بجهدنا أن يكرِّمه،
يجب أن نتحمل النتائج ونعلِّم النفس
أمور الضمير والدين،
وليس الرغبة في الحكم أو المنفعة.

أعتقد أن الولاية سرعان ما ستتمكن من انتزاع عملي النوعي هذا كلَّه من بين يدي، وعندئذٍ لن أكون وطنياً أحسن من أبناء وطني. الدستور، منظوراً إليه من وجهة نظر أدنى، مع مثالبه كلِّها، جيد جداً؛ القانون والمحاكم محترمة جداً؛ وحتى هذه الولاية وهذه الحكومة الأمريكية، من وجوه عديدة، تستحقان الإعجاب، وهما شيئان نادران يستوجبان الامتنان، كما وصفهما عدد كبير من الناس؛ أما منظوراً إليهما من وجهة نظر أعلى قليلاً، فهما على ما وصفتُهما؛ ومن وجهة نظر أعلى، ومن وجهة النظر العليا، مَن ذا يستطيع القول ما هما، أو فيما إذا كانتا تستحقان النظر إليهما أو التفكير فيهما أصلاً؟

غير أن الحكومة لا تهمني كثيراً، ولسوف أخصص لها أقل ما يمكن من الخواطر. فاللحظات التي أحيا فيها تحت لواء حكومة ليست كثيرة، حتى في هذا العالم. فإذا كان المرء حرَّ الفكر، حرَّ المخيِّلة، حرَّ التصور، أي ما لا يبدو أنه ملك له طويلاً قط، فإن الحكَّام أو المصلحين غير الحكماء لا يستطيعون حتماً أن يمنعوه.

أعرف أن غالبية القوم تفكر على غير ما أفكر؛ لكنْ حسبي أولئك الذين حيواتهم منذورة مهنةً لدراسة هذا الموضوعات أو موضوعات أخرى نسيبة مهما قلَّ عددهم. أما رجال الدولة والمشرِّعون الواقفون بكليتهم ضمن المؤسَّسة، فلا

يميزون أنفسهم عنها ولا ينظرون إليها على حقيقتها. يتكلمون على تحريك المجتمع، لكنْ ليس لهم مستقر بدونها. قد يكونون رجالاً لديهم شيء من الخبرة والتمييز، ولا ريب في أنهم اخترعوا نظماً مبتكَرة وحتى مفيدة، الأمر الذي نشكرهم عليه خالص الشكر؛ لكن فطنتهم وفائدتهم تكمن ضمن حدودٍ معينة ليست واسعة جداً؛ فدأبهم أن يتناسوا أن العالم غير محكوم بالسياسة وبالذرائع. إن [رجل القانون] وبستر لا يتخلف أبداً عن الحكومة، وبالتالي لا يستطيع أن يتكلم عليها كلام ذي سلطان. كلماتُه حكمةٌ بنظر أولئك المشرِّعين الذي لا يتطلَّعون إلى أيِّ إصلاح في الحكومة الراهنة؛ أما المفكرون، وأولئك الذين يشرِّعون لكلِّ الأزمنة، فإنه لا يكلف خاطره إلقاءَ نظرة واحدة على الموضوع. أعرف أناساً من شأن تفكُّرهم الرصين الحكيم في هذه المسألة أن يكشف سريعاً حدود مداه الذهني وأريحيته. ومع ذلك فإنه، بالمقارنة مع المزاعم الرخيصة لغالبية المصلحين، ومع الحكمة والبلاغة الأرخص أيضاً للسياسيين إجمالاً، فإن كلماته تكاد تكون الكلمات الوحيدة الحساسة والقيِّمة، ونحن نشكر السماء على وجوده. إنه، بالمقارنة، قوي دوماً، أصيل، وفوق كلِّ شيء، عملي. ومع ذلك فإن صفته ليست الحكمة بل الحيطة. إن حقيقة المحامي ليست الحقيقة، بل التماسك أو الذريعة المتماسكة. فالحقيقة متناغمة دوماً مع نفسها، ولا يهمها في المقام الأول الكشف عن العدل الذي يتوافق مع ذلك بارتكاب الشر. إنه يستحق بحق أن يدعى، كما دُعِيَ فعلاً، *المدافع عن الدستور*. فلا ضربات ثمة يضربها، بل ضربات دفاعية. إنه ليس قائداً، بل تابع. قادتُه هم رجال ١٧٨٧ [من واضعي الدستور]. يقول: "لم أبذل جهداً قط، ولا أقترح بذل جهد؛ لم أستحسن جهداً، ولا أنوي استحسان أيِّ جهد، من شأنه أن يخلخل الترتيب كما وُضِعَ أصلاً، الذي انضمت وفقاً له الولايات المختلفة إلى الاتحاد." ومفكراً كذلك في التأييد الذي يقدمه الدستور للرقِّ يقول: "بما أنه كان جزءاً من العهد الأصلي – فليبقَ." وعلى الرغم من حدة ذهنه وقدرته الخاصين فإنه لا يقدر أن يستخلص واقعة من علائقها السياسية المجردة وينظر إليها كما لو أنها مطروحة فقط لكي يُعمِل العقلُ فيها النظرَ – ماذا، على سبيل المثال، ينفع المرء أن يفعل هنا في أمريكا اليوم فيما يخص الرق – بل يخاطر أو ينقاد إلى تقديم إجابات مثل الإجابة اليائسة التالية، بينما يتظاهر بالكلام مطلقاً، وكرجل فرد – فأي قانون للواجبات الاجتماعية جديد وفريد يمكن أن يُستنبَط منها؟ يقول: "إن الوسيلة التي ينبغي على حكومات تلك الولايات التي يوجد فيها الرقُّ أن تضبطه بها تعود إلى تقديرها هي، تحت طائلة مسؤوليتها حيال ناخبيها، حيال القوانين العامة للملكية، والإنسانية، والعدالة، وحيال الله. أما الجمعيات التي تشكلت

في أماكن أخرى، نابعةً من شعور إنساني، أو من أي سبب آخر، فلا تمت بصلة من أيِّ نوع إلى تلك الوسيلة. لم يسبق لها أن تلقَّتْ أيِّ تشجيع مني، ولن تتلقَّى."
لم يظهر رجل عبقري في التشريع في أمريكا. فهم نادرون في تاريخ العالم. هناك خطباء، سياسيون، ورجال بليغون، بالآلاف؛ لكنْ ما من خطيب فتح فاه متكلماً حتى الآن بقادر على تسوية المشكلات الراهنة الشديدة الإقلاق للراحة. إننا نحب البلاغة من أجل ذاتها، وليس من أجل حقيقة ما قد تنطق بها، أو أية بطولة قد تُلهمُها. لم يتعلَّم مشرِّعونا بعدُ القيمة النسبية للتجارة الحرة والحرية، للاتحاد، وللاستقامة، بالنسبة للأمة. ليست لديهم عبقريةٌ أو موهبةٌ للمسائل المتواضعة نسبياً لفرض الضرائب والتمويل، للتجارة والصناعة والزراعة. ولو تُرِكنا ترشدُنا فطنةُ المشرِّعين المطنبين في الكلام في الكونغرس وحدها، لا تقوِّمها الخبرة التي تأتي في أوانها والشكاوى الفعلية للناس، لما استطاعت أمريكا أن تحافظ طويلاً على منزلتها بين الأمم. منذ ألف وثمانمائة سنة، مع أني ربما لا يحق لي أن أقول ذلك، كُتِبَ *العهد الجديد*؛ ومع ذلك، أين هو المشرِّع الذي يملك ما يكفي من الحكمة والموهبة العملية لكي ينتفع بالنور الذي يلقيه على العلم أو على التشريع؟

إن سلطة الحكومة، حتى إذا كانت من النوع الذي أنا مستعد للخضوع له – إذ إنني سوف أطيع مبتهجاً أولئك الذين يعلَمون ويمكنوا أن يعملوا أحسن مني، وفي أشياء كثيرة حتى الذين ليسوا يعلَمون وليس بمقدورهم أن يعملوا خيراً مما أعمل – مازالت سلطةً غير طاهرة: فحتى تكون عادلة بالدقة، يجب أن تحوز على إذْنِ المحكومين وموافقتهم. ليس لها أيُّ حقٍّ محضٍ على شخصي أو ملكي إلا ما أنزل لها عنه. إن التقدم من المَلَكية المطلقة إلى المَلَكية المحدودة، ومن هذه إلى الديمقراطية، هو تقدم نحو احترام حقيقي للفرد. وحتى الفيلسوف الصيني كان من الحكمة بحيث اعتبر الفرد أساس الإمبراطورية. فهل الديمقراطية، كالتي نعرفها، آخرُ تحسين ممكن في الحكم؟ أليس من الممكن أن نخطو خطوة إلى الأمام نحو الاعتراف بحقوق الإنسان ونحو تنظيمها؟ لن تكون ثمة دولة حرة ومتنوِّرة حتى تؤول الدولةُ إلى الاعتراف بالفرد كسلطان أعلى مستقل، تُستَمَدُّ منه قدرتُها وسلطانُها، فتعاملَه على هذا الأساس. يلذ لي أن أتخيل دولةً على الأقل تطيق أن تكون عادلة مع البشر قاطبة، وتعامل الفرد باحترام كأنه جار؛ دولة لا تجد حتى أنه من لا يتناقض مع راحة بالها أن يتفق لثلة منهم أن يحيوا بمنأى عنها، لا يخالطونها، ولا تضمُّهم، وقد قاموا بواجباتهم كجيران وكرفاق بشر على التمام. إن دولةً جادت بمثل هذه الثمرة، وتمنَّت عليها أن تسقط حال نضجها، من شأنها أن

تعبِّد الطريق لدولة أكمل منها وأمجد – دول تخيَّلتُها هي الأخرى، لكني لم أرها بعدُ في أيِّ مكان. (٧٠)

المصادر والمراجع :

١ - أدب الولايات المتحدة الأمريكية : ماركوس كنليف ترجمة سامي فهمي القليوبي ، مراجعة د. لويس مرقص ، الألف كتاب ٥٥٨ ، بإشراف الإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دار الحمامي للطباعة ، ١٩٦٥م ، الناشر مؤسسة سجل العرب . مصر – القاهرة . ص١٦٥ .

٢ - للمزيد من التوضيح ينظر :

- أدب الولايات المتحدة الأمريكية : ماركوس كنليف ترجمة سامي فهمي القليوبي ، مراجعة د. لويس مرقص، ص١٦٤ .
- موجز تاريخ الأدب الأمريكي : بيتر هاي ، ترجمة هيثم على حجازي ، دراسات نقدية عالمية (٨) ، منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٠م ، سورية – دمشق . ص ٤٩ – ٥٥ .
- www.startimes.com/f.aspx?t=18018333
- iipdigital.usembassy.gov/arabic/ .
- http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/publication/2009/06/20090609134404snmassabla0.5491907.html#ixzz2u3LeFiRO .

3 - Nicomachean Ethics : Aristotle , Translated by W. D. Ross , book I , 7 . الموقع الإلكتروني :
www.adelaide.edu.au/

تاريخ الفلسفة إلىونانية : يوسف كرم ، لجنة التإليف والترجمة والنشر ، السلسلة الفلسفية ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦ م ، ص ٢٤٤ – ٢٤٥ .

٤– العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ترجمة: ديمتري أفييرينوس وموسى الحوشي ، الموقع الإلكتروني :
www.maaber.org/tenth_issue/non_violence_2a.htm ، ص ١ .

٥ - للمزيد من التوضيح ينظر : الموقع الإلكتروني :
حكومة=
www.almaany.com/home.php?language=arabic...name...word

، الشامل : قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية : إنجليزي - عربي : د. مصلح الصالح ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية – الرياض . ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية (عربي – انجليزي) : د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ، بدون ، ص ١٨٦ ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية : انجليزي – فرنسي – عربي : د. أحمد زكي بدوي ، مكتبة لبنان – بيروت . ص ١٨٠ ، الموسوعة السياسة : د. عبد الوهاب الكيالى وآخرين ، راجعها ونقحها رشاد بيبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ج ٢ ، ص ٥٦٧ – ٥٦٨ .

٦ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ١ .

٧ – الموقع الإلكتروني : الحرب_المكسيكية_الأمريكية
.ar.wikipedia.org/wiki/

٨ - عارنا في الجزائر : جان بول سارتر ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مصر – القاهرة . ص ٥

٩ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ١ – ٢ .

١٠ – المرجع السابق : ص ٢ .

١١- (الديمقراطية) فكرة موضع خلاف : فيليب غرين ، ترجمة د. محمد درويش ، جمهورية العراق ، وزارة الثقافة ، بغداد ٢٠٠٧ م ، دار المأمون للترجمة والنشر ، ص ١ .

١٢ - تاريخ الديمقراطية : حكم القوانين لا حكم الأشخاص : ٢٠١٢م ، د. نبيل ياسين ، مركز البحرين للدراسات في لندن . ص ٤ .

١٣ – المرجع السابق : ص ٤ – ٥ .

١٤ - القانون : مشتق من قنن ، والقن : العبد الذي ملك هو وأبواه ، والقنية هي الملك . والضمير : أضمر شيئا : أخفاه ، والضمير ، ما هو مضمر أي السر داخل الخاطر ، وهو ما يضمره الإنسان في نفسه ويصعب على الآخرين الاطلاع عليه . ويقال أضمر في نفسه أمرا أي عزم عليه بقلبه .

١٥ – للمزيد من التوضي ينظر :
قانون
www.almaany.com/home.php?language=arabic...name...word
=

، قانون /www.maajim.com/dictionary، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية : انجليزي – فرنسي – عربي : د. أحمد زكي بدوي ، الموسوعة السياسية: د. عبد الوهاب الكيالى وآخرين : ج ٤ ، ص ٧٢٦ – ٧٢٧ .

١٦ – للمزيد من التوضيح ينظر :

www.almaany.com/home.php?language=arabic...name...word

الضمير/www.maajim.com/dictionary ،المعجم الفلسفي : مجمع اللغة العربية ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، جمهورية مصر العربية . ص ١١٠ . المعجم الفلسفي : بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية : د. جميل صليبا ، ١٩٨٢ م ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت – لبنان ، ج ١، ص ٧٦٣ – ٧٦٤ .

١٧ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ٢ .

١٨ – للمزيد من التوضيح ينظر : www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/1709 .

١٩ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ٢ – ٣ .

٢٠ – المرجع السابق : ص ٤ .

٢١ - والدن : وحي الغابة : هنري ثورو ، ترجمة أمين مرسي قنديل . بدون ، ص ١٧ .

٢٢ - ظهر مصطلح العقيدة القتالية مع نشوب الصراع المسلح بين الدول وهو يعني في مفهومه العام التعبير الأمني لوجهات النظر الرسمية في كل ما يتعلق بأمور الصراع وطرق التحضير له وإدارته وجني ثمار النصر الذي يطرقه ، لذلك فإن العقيدة القتالية تعتبر نتاج كافة الأبحاث والخبرات التي تسعى الدولة إلى بلورة وجهة نظرها لتحقيق أمنها القومي وفرض سيادتها وإعلاء كلمتها . وضعت الدول عقائدها العسكرية بما ينسجم وأهدافها المخططة والواجب تحقيقها والإمكانات المتاحة لهذه الدول البشرية منها والاقتصادية والجغرافية ضمن سياق العقائدية الفكرية وكانت تقوم بتطوير هذه العقيدة وتعديلها بما ينسجم ويتوافق مع أهدافها ومخططاتها والتطورات التي تشهدها هذه البلاد أو تلك . للمزيد من التوضيح ينظر : albasalh.com/vb/showthread.php?t=32 .

٢٣ – للمزيد من التوضيح ينظر :

www.alarabnews.com/alshaab/2004/04-06-2004/11.htm

٢٤ ـ الحكومة المدنية وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو : جون لوك ، ترجمة د. محمود شوقي الخيال ، اخترنا لك ٨١ ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية . ص ١١ .
٢٥ ـ كيف نسقط الاستبداد : في فنون النضال الجماهيري السلمي المشترك : حركة ٢٠ فبراير تحت المجهر : عبد الرحمن النوضة ، كتاب إلكتروني نشر لأول مرة في أبريل ٢٠١٣ م . ص ١٣ .
٢٦ – العصيان المدني : هنري د. ثورو ص ٤ .
٢٧ ـ الحكومة المدنية وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو : جون لوك ، ص ١٥٢ .
٢٨ ـ في الحرية والديمقراطية : كارل بوبر ، ترجمة عقيل يوسف زيدان ، مراجعة محمد عبد الجبار شبوط ، ترجمات تنوير (١) ، ط ١ ، الكويت ٢٠٠٩ م ، مركز الحوار للثقافة (تنوير) ص ٤٤.
٢٩ – للمزيد من التوضيح ينظر : المواقع الإلكترونية :
،www.thirdpower.org/index.php?page=read&artid...
iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/pamphlet/2013/.../2013090 . 3282146.html
٣٠ ـ العصيان المدني : هنري د. ثورو ص ٥ .
٣١ ـ المشاركة السياسية والديمقراطية :اتجاهات نظرية ومنهجية حديثة تفاهم في فهم العالم من حولنا : د. سامية خضر صالح ، ٢٠٠٥م . ص ٢٤ – ٢٥
٣٢ ـ العصيان المدني : هنري د. ثورو ص ٦ .
٣٣ – للمزيد من التوضيح ينظر :
iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/.../20100623121356x0.539 . 8371.html
٣٤ ـ ديمقراطية للقلة : مايكل بارنتي ، ترجمة حصة المنيف ، مراجعة مني مطاوع ، تقديم ممدوح عدوان ، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومي للترجمة ، العدد (٤٦٤) ، ط ١ ، ٢٠٠٥، م . ص ٦١ .
٣٥ ـ العصيان المدني : هنري د. ثورو ص ٦ – ٧ .
٣٦ – المرجع السابقة : ص ٧ .
٣٧ – المرجع السابق : ص ٨ .
٣٨ ـ النظام السياسي لمجتمعات متغيرة : صمويل هنتنجتون ، ترجمة سمية فلو عبود ، ط ١ ، ١٩٩٣ م ، دار الساقي ، بيروت – لبنان . ص ٧ – ٨ .

٣٩ – العصيان المدني : هنري د. ثورو ص ٨ .
٤٠ – المرجع السابق : ص ٨ .
٤١ - المرجع السابق : ص ٨ – ١٠ .
٤٢ - العبودية في العصر الحديث : باتريسيا ديلبيانو ، ترجمة أماني فوزي حبشي ، د. عز الدين عناية ، ط ١ ، ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م . ص ٢١٢ – ٢١٣ .
٤٣ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ص ١٠.
٤٤ – المرجع السابق : ص ١٠ .
للمزيد من التوضيح ينظر : والدن : وحي الغابة : هنري ثورو ترجمة أمين مرسي قنديل ، بدون . ص ١٦٢ .
٤٥ - البدائل الحقيقية : جين شارب ، مؤسسة ألبرت أينشتاين ، بدون . ص ٣ .
٤٦ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ص ١٠ – ١١ .
٤٧ - القانون والحرية في حضارة الغرب : إسماعيل مظهر ، رسالة الفكر الحر ، الرسالة الثانية ، ١٩٤٧ م ، مطبعة المقتطف والمقطم . ص ٦ .
٤٨ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ١١ – ١٢ .
٤٩ - المرجع السابق : ص ١٠ .
٥٠ – المرجع السابق : ص ١٢ .
٥١ - فكرة القانون : د. دينيس لويد ، تعريب المحامي : سليم الصويص ، مراجعة سليم بسيسو ، (٤٧) ، ١٩٨١ م ، عالم المعرفة : سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت . ص ١٥ .
٥٢ – العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ١٢ – ١٣ .
٥٣ - المرجع السابق : ص ١٣ .
٥٤ www.el-balad.com/661872 .
٥٥ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ١٦ .
٥٦ - المرجع السابق : ص ١٦ .
٥٧ - والدن : وحي الغابة : هنري ثورو ، ترجمة أمين مرسي قنديل . ص ٩٤.
٥٨ - المرجع السابق : ص ١٧ .
٥٩ - أورفيوس : هو بطل أسطوري من الأبطال الخارقين في الميثولوجيا اليونانية . و هبته الآلهة مواهب موسيقيه فوق العادة . وهو ابن الإله أبولو Apolloأو ابن ملك تراقية أويغروس Oeagrus وأمه كاليوبِي Calliope :إحدى ربات الشعر والموسيقى التسع الشقيقات : Musai ، وقد أهداه أبولو قيثارة : Lyr فكان يعزف عليها ويغني ألحانا شجية ساحرة . أساطير كثيرة تدور

كلها حول عذوبة صوته و جمال عزفه على الآلات الموسيقية و خصوصا على القيثارة . يقال أنه من كثرة حلاوة غناه كان الطير و الشجر و الحجارة والحيوانات ترقص و تتمايل على ألحانه . ولقد ورد في أسطورة أورفيوس : كان أورفيوس بن أبوللو وموسي الملحمي . وأهداه أبيه قيثارة وعلمه العزف عليها ، وهو ما أنجزه بكمال لا يستطيع أحد أن يقاوم سحر موسيقاه . ليس فحسب أتباعه ولكن الوحوش البرية أيضا كانت تزداد نعومة بما يقدمه من موسيقي ، وكانت تتجمع حوله متخلية عن وحشيتها ومنبهرين بعرضه الموسيقي . لا ، إن الأشجار والصخور كانوا حساسين لسحر موسيقاه . وكان السابقين يتجمعون حوله والتاليين يرخون إلى حد ما من صلابتهم ويزدادون رقة بموسيقاه . للمزيد من التوضيح ينظر المواقع الإلكترونية :

أورفيوس/arz.wikipedia.org/wiki ،

forum.stop55.com/362979.html ،

نصوص /www.bartleby.com/bulfinch

أورفيوس

٦٠ – عندما سئلت دار الإفتاء المصرية عن الحكم الشرعي بصدد : الخروج في المظاهرات والاشتراك في الاعتصامات والاحتجاجات . أصدرت الفتوى الآتية : الرقم المسلسل ٤٠١٥ تاريخ الإجابة ٢٠١١/٨/١٧م .

المظاهرات : الغرض منها إظهار أن المطلب ليس مطلبًا فرديًّا وإنما هو مطلب جماعي . فالتظاهر مكون من أمرين كل منهما في نفسه يعد جائزًا بمجرده ؛ أولهما : مجرد الاجتماع بالأبدان ؛ إذ الأصل في الأفعال نفي الحرج حتى يدل الدليل على خلافه . الأمر الثاني : المطالبة بتحقق أمر مشروع ، أو رفع أمر مكروه ؛ فالمظاهرة بهذا وسيلة لهذا ، والوسائل تأخذ حكم المقاصد . والأصل في طلب الحاجات من الحاكم أنه مشروع ؛ فولي الأمر قائم لقضاء حوائج الرعية .

على أنه ينبغي التنبه إلى أن هذا الجواز مشروط بعدة شروط ومضبوط بعدة ضوابط ، منها :

١- ألا يكون موضوعها المطالبة بتحقق أمر منكر لا يجيزه الشرع .

٢- ألا تتضمن شعارات أو ألفاظا يحرمها الشرع .

٣- ألا تتضمن أمورًا محرمة من نحو إذاية الخلق أو الاعتداء على ممتلكات الناس أو الاختلاط المحرم بين الرجال والنساء .

والاعتصامات شأنها شأن المظاهرات في الحُكم والضوابط .

وأما قول من قال إن المظاهرات ممنوعة لأنها بدعة غربية ، فغير مقبول ، لأنها ليست من العبادات حتى يقال إنها بدعة ، فإن قيل : المقصود أنها من بدع العادات الواردة إلينا من الغرب ، فالجواب : أن هذا أيضا غير صحيح ؛ لأن المظاهرات عرفها المسلمون في مختلف أمصارهم وأعصارهم قديما ، وكانت تستعمل مع الولاة أحيانًا ، وأحيانا مع المحتل الغاصب .

والخلاصة : أن المظاهرات والاعتصامات جائزة من حيث الأصل ، وقد تعتريها باقي الأحكام الخمسة بحسب مقصدها ووسيلتها . وعليه فتكون المشاركة فيها بحسب حكمها . والله سبحانه وتعالى أعلم . للمزيد من التوضيح ينظر : الموقع الإلكتروني لدار الإفتاء المصرية :

. www.dar-alifta.gov.eg/default.aspx

٦١ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ١٨.

٦٢ – المرجع السابق : ص ١٨ .

٦٣ – حرية الفكر في العالم الجديد : زكي نجيب محمود ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م . دار الشرق – مصر . ص ٦٥ – ٦٦ .

٦٤ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ٢٠ .

٦٥ - حرية الفكر في العالم الجديد : زكي نجيب محمود ، ص ٧٠ .

٦٦ - سلسلة الحكماء يتكلمون : منغ تسي (مانشيوس) : تساي شي تشين ، دار النشر لتعلم اللغة الصينية ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م . ص ١٥٢ .

٦٧ - العصيان المدني : هنري د. ثورو ، ص ٢٠ - ٢١ .

٦٨ - والدن : وحي الغابة : هنري ثورو ، ترجمة أمين مرسي قنديل . ص ٢٣٢.

٦٩ – المرجع السابق : ص ١٦٧ .

٧٠ - www.maaber.org/tenth_issue/non_violence_2a.htm .